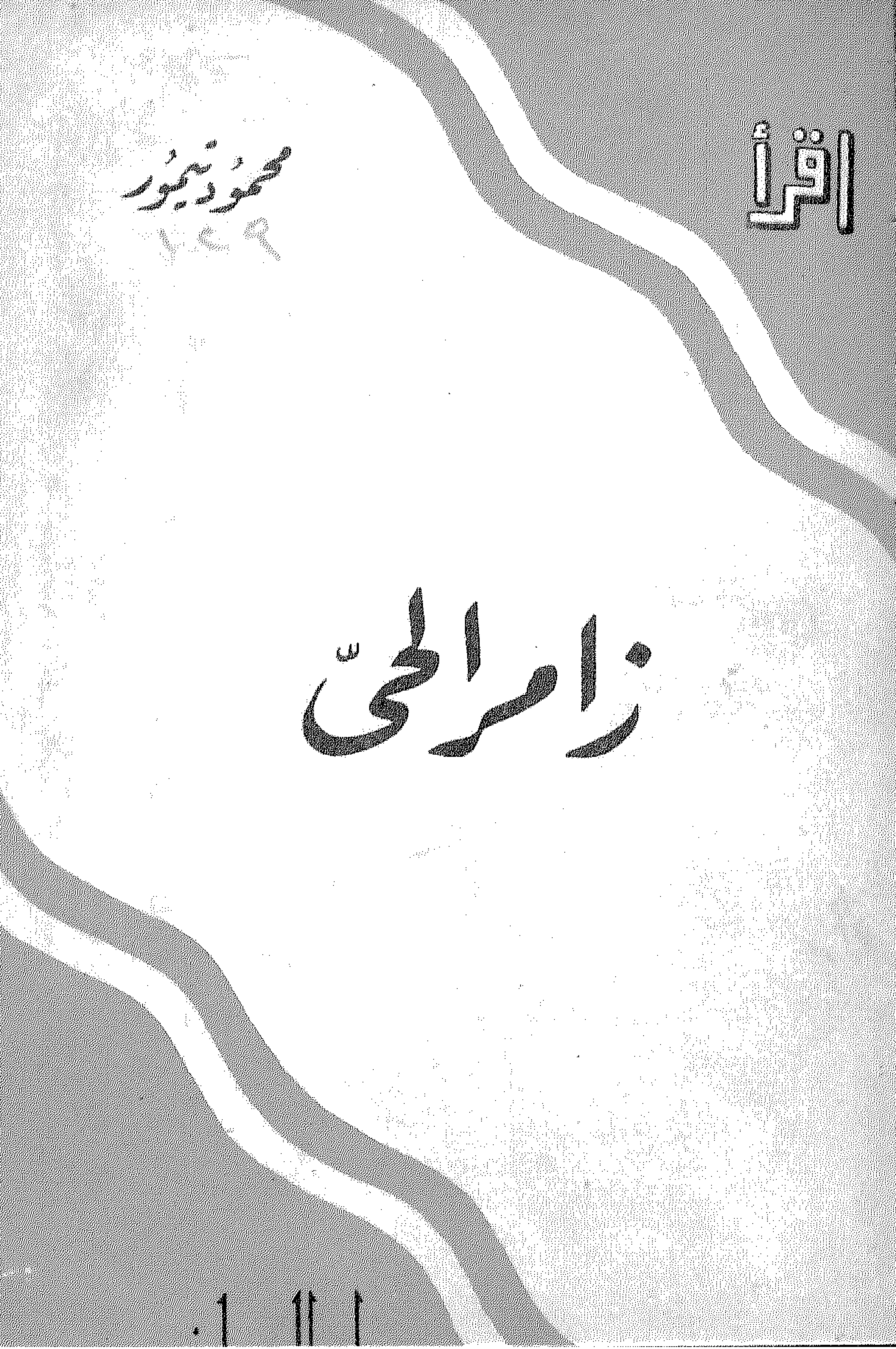

اقرأ
محمود تيمور
زامر الحي

زاہر الحیؒ

محمود تيمور

زامر الحيّ

١٢٩ اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٩ — أول سبتمبر ١٩٥٣



زامر الحى ...

كنت وأنا فى أوج الصبا أسكن حىّ « درب سعادة » ، ذلك الحى العتيق الذى تتزاحم دوره ، ويتضايق طريقه ، حتّى لكأن الدور على جانبيه توشك أن تتعانق . . .

ولم يكن روّاد هذا الحىّ كلهم من سكانه ، فمن بين أهليه طوائف من الناس تختلف إليه طرفى النهار وبعض الليل ، لا يكادون ينقطعون عنه فى يوم ، ولا يخفى عليهم من سكانه أحد ، أولئك هم الباعة الجوّالون ، والعفاة من طلاب الصدقات ، وغيرهم من المرتزقة بفنون الملاهى وألوان التسلية وضروب الإضحاك والتفكيه .

وقبيل الصيف ، أظلتنى أيام الامتحان ، فألزمتنى الدار أستذكر وأستوعب ، فإذا ثقلت علىّ الوطأة ، ودار بى رأسى ، خرجت إلى الباب أتخذ به مقعداً يشهدنى مواكب الطريق .

وفيما أنا جالس ذات يوم ، صافحتْ سمعى رنات لحن حنون تبعثها صفارة من مكان قريب ، وما برحت هذه الرنات

الشجية تتوارد عليّ مستبينة وضّاحة ، حتّى تجلى بها زامر للحيّ لم يكن لى به عهد .

وجه ضامر عليه سماحة ، تزينه لحية خفيفة كساها الخضاب ، وزيّ على سذاجته بادى النظافة رائق الهندام ، ومشية وادعة مسترخية تتطلع فيها أنظار الرجل إلى السماء ، كأنها تستملى منّها ما يستوى عليه النغم من إيقاع .

وراعنى من لحن ذلك الناى أنه كان حزين النبرة ، ينبض باللوعة ، وكأنه ينطوى على سر حبيس يحاول أن يصونه ، ولكن السر يأبى إلا أن يتسلل فى حنايا النغم ، كأنما هو نفثة مصدور .

صادف هذا اللحن من نفسى هوى ، بل مسّ من قلبى الشغاف ، فجعلت أحرص على الجلوس ساعة الأصيل ، أرتقب صاحب الناى فى موعده المألوف ، فإذا مر بى الصوت ، وغاب عن سمعى الصدى ، أحسست بروحى تتبعه ، هائمة معـــه .

وعلى مر الأصائل تم التعارف بينى وبين شيخ الناى ، أستوقفه بعض وقت ، وأدعوه إلى الجلوس بجانبى فى الأحايين .

وكان كلانا يأنس بصاحبه ، يجاذبه ألوان الأحاديث ... أما هو فلا تفرغ له جعبة من الطرائف والنوادر والحكايات ، يحسن كيف يرويها خلابة الوصف ، شائقة العرض . وأما أنا فلا أمل سؤاله فى شأنه : كيف كانت أطوار حياته ، وأية آفاق تقاذفته ؟ فيجيبنى إجابة المقلّ الكتوم ، يضن بالإفاضة ، ويتحرز من التصريح .

ومما كنت التزمته فى هذه الأيام التى أتأهب فيها للامتحان أن أؤدى الفرائض فى أوقاتها لا أتهاون ، وكان على مقربة من دارنا مسجد صغير أقصده طالباً صلاة الجماعة ، وحضر وقت المغرب وأنا بالباب أتحدث إلى شيخ الناى ، فدعوته معى إلى المسجد ، فاشرأب تائه النظر فى كبد السماء ، وهو يقول مجمجماً :

أعفنى . . .

ثم لملم نفسه يهم بالمضىّ عنى ، وهو يقول :

قم لصلاتك . . . إنى ذاهب فى سبيلى !

وهرول فى مشيته تخفيه طيات الطريق ، فوقع تصرفه من نفسى موقع الغرابة ، واسترببت بأمره ، ولكنى شغلت عنه

بإقامة الصلاة .

وفى أمسية من الأماسىّ ، قفلت من المسجد بعد أداء فريضة المغرب إلى الدار ، فلمحت شيخ الناى يحوم حول الباب كأنه يتفقدنى ، فأخذت بكتفه أبادره بقولى :

أنت هنا ؟ . . . أطال انتظارك إياى ؟

ـ حضرت منذ قليل ، وأطلقت صوت الناى يدعوك .

ـ كنت فى المسجد . . . لماذا لا أصادفك فيه ؟

فوجم الرجل ، واكفهر وجهه ، ثم رجفت شفتاه دون كلام . . . فحدقت إليه أقول :

ماذا يقعد بك عن المسجد ؟

ـ المسجد ؟ المسجد ؟

واستبانت الرعشة فى صوته وهو يقول :

إنما الأطهار من عباد الله هم الذين يؤمّون بيوت الله .

وما عتم أن استدار عنى ينفتل ماضياً ، وهو يلوّح لى مودّعاً بيده . فانقبضت نفسى مما رأيت ، وبلغت بى الحيرة فى شأن الرجل كبير مبلغ ، وأقسمت لأعرفن من جلية أمره ما يخفى .

ما بال صاحب الناى يتحدث عن الأطهار كأنهم من طينة غير طينته ، وكأنهم على شاكلة غير شاكلته ؟ ومن الأطهار إن لم يكن من بينهم هذا الرجل الذى تنطق سماته وقسماته بالطيبة والصلاح ؟ ومن أولى بالصلاة من ذلك الذى يأكل لقمته من كسب حلال ، فى عفة نفس ، وشرف سعى ، لا يشرك الناس فى نقائص الناس ؟

ولبث صاحب الناى على حاله فترة من الزمن ، وهو لغز عصىّ يستغلق علىّ ، وكأنما زادنى هذا الإبهام الذى يكتنفه إقبالا عليه ، وتعلقاً به . ولكنى مع ذلك تهيبت أن أقتحم عليه سره ، خشية أن يضيق بى ، فينفر منى .

وتواصل الود بيننا . . . أسبغ عليه من عطف ولطف ، وأبثه الحديث فى خاصة أمرى ، وأطلب مشورته فيما يساورنى من مشكلات دنياى . وهو يمحضنى النصح ، ويقدر ثقتى به ، ويكبر ما أستودعه من سرى ، حتى شرع يرفع الكلفة بينه وبينى .

وكان فى الحين بعد الحين يسترسل فى إنشاد بعض الأهازيج الريفية التى تنطوى فيها لواعج الحب وتباريح الهيام .

وكأن هذه الأناشيد تترجم بالكلام ما كان الناى يرسله من أنغام . . . فإذا فرغ من إنشاده ، بعث من أعماق صدره تنهدات حارّة ، وأفاض فى حديث عاطفى مشبوب ، يقص علىّ ما يلقاه العاشقون من ضروب الوجد والحنين ، وما يعترض طريقهم من عقبات وأشواك ،وأنا أُخالسه نظرات تستشف ما وراء تلك النفس المعذبة الحيرى .

وبينما كنت يوماً جالساً إليه ، وقد ترنم بالغزل ، وقص علىّ ما قص من مصارع العشاق ، جذبت يده إلىّ ملاطفاً ، وأنا أحملق فيه ، وعلى فمى بتسامة ، وقلت مباغتاً فى صوت رفيق :

يميناً لقد كانت لك عصفورة . . . عصفورة طارت من عشك !

فرعدت يد الرجل فى يدى ، وزوى بصره عنى ،وجمجم يقول :

عصفورة ؟ عش ؟ أية عصفورة ؟ وأى عش ؟

واستأنفت أقول :

يميناً لقد لوّعك الحب ، وإن قلبك لينطوى على جرح دفين !

فأطرق يشدّ على يدى قائلا :

دعنى بربك دعنى . . . خلّنى وما بى . . . إنه سرّى !

ثم تغشاه الصمت هنيهة ، وأنظاره تسبح فى أعراض الأفق ، وإذا هو تنفرج شفتاه ،رقيق الصوت ، حزين اللهجة كأنما يناجى نفسه . . . يقول :

« . . . يحكى أن . . . يحكى أن فتى يدعى « سرحان » درج فى قرية تسمى « الشباريق » ،وكان أخوه الشيخ «محمد الرخ » إمام المسجد الكبير فى القرية يكفله منذ الطفولة ، وقد أحسن تنشئته وتربيته ، فعلمه القراءة والخط ، وأحفظه ما استطاع أن يحفظ من كتاب الله ، واستعان به فى خدمة المسجد ، وأداء الأذان فى مواقيت الصلاة .

شغف هذا الفتى منذ صباه برجل ينتسب إلى بعض الطرق الصوفية لا يخلو من لوثة ، أكبر همه النفخ فى صفارته ، وترديد الأذكار ليل نهار ، فاتخذه الفتى أستاذاً له ، لقن منه فن الصفير ، وروى عنه الأغانى والترانيم .

ويوماً ، والفتى فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وقف

على رأس الطريق ضحوة يرقب ، فإذا أخوه الإمام قادم بعد غيبة عن القرية نحو شهر . . . وراع الفتى أن يرى أخاه قد اصطحب إحدى النساء منتقبة تكسوها الملاءة السوداء .

من تكون ؟ إن امرأة أخيه قضت نحبها منذ أشهر قلال ، وما كان لأخيه أن يصطحب من النساء إلا ذوات القربى ، وليس يلوح على هذه المرأة أنها من أهله . . .

وبينما الفتى فى دهشته ، إذ دنا منه أخوه يرغب إليه فى أن يحمل عن صاحبته ما فى يدها من صرّة المتاع ، وهو يقول له :

صافح زوج أخيك !

وعقدت البغتة لسان الفتى ، فمشى عاثر الخطا تتنازعه خجلة وفضول . . . وهمهم يريد التحية ، ولا يدرى بأى قول نطق ، وما لبث أن تناول صرة المتاع مسرعاً إلى الدار .

كانت عروس الإمام فى زهرة الصبا ، وضيئة الطلعة ، ما كاد الفتى يعايشها أياماً حتى أنس بها أنساً لم يحسه لأحد من من قبل . وكلما تقادم العهد جدّ من ألفة الفتى لها ما يملأ نفسه هماً ، وبان له أخيراً على غير شك أنه يهواها ، وأن الهوى

يذيبه ، فهاله الأمر ، واستنكف أن تكون له هذه العاطفة الذميمة نحو زوج أخيه . . . أخيه الذى هو فى مقام أبيه ، وليّ نعمته فى عيشه كله .

وعالج الفتى أن يرد عن قلبه ذلك الهوى الغشوم ، فحرص دوماً على ألا يخلو بزوج أخيه ، وتحاشى جاهداً أن يطارحها الحديث ، فكان كأنما ينفخ فى النار ، يزيدها من ضرام . . .

ولم يجد بداً من أن يقبر فى أعماق نفسه سره الفاضح ، لا سلوى له إلا صفارة من قصب ، يودعها نفثات ملهوفة من صدره المقروح .

وضاق الفتى ذرعاً بما كان يلحظه من رعاية زوج أخيه له ، وبرها به ، ولا سيما فى مغيب أخيه . . . فإذا خصته بشيء من طريف ما تطهو من طعام ، تأبّى أن يقربه ، متلمساً ألوان المعاذير ، وإذا تعللت ببعض الأسباب لإطالة حديثها معه ، تعمد اقتضاب الكلام ، بغية الإفلات .

وذات يوم ، والشمس على أهبة الغروب ، كان الفتى خالياً بنفسه خلف الدار ، آخذاً بصفارته يبثها نجواه ، وهو تائه الفكر هيمان ، فاستشعر على حين بغتة أن خلوته يشوبها

طارق . وما إن تلفت حوله حتّى لمحت عينه « هنيّة » زوج أخيه تواريها كومة من حطب عن كثب ، وهى ترنو إليه فى سكينة وخشوع ، فملكته رعشة ، ونهض من فوره يقول :

أنت هنا ؟

فأجابته فى صوت عطوف :

حضرت منذ قليل .

فقال لها فى اضطراب :

ما أتى بك ؟

فكسرت عينها ، وهى تقول :

جذبنى صفيرك .

ورآها تتهادى إليه حتّى واجهته ، فقلقت قدماه ، يبغى هرباً . . . فأمسكت « هنية » بطرف كمه تقول :

ماذا يعجلك ؟ لتلبث قليلا . . .

فصاح الفتى صيحة مختنق ، وهو يدير عنها بصره ، وينحيها عنه بيده ، قائلا :

دعينى . . . دعينى . . .

فهمهمت تقول له فى مسكنة وانكسار :

ماذا يبعثك على كرهى ؟ لم تضيق بى ؟

واستبدت بها نوبة من البكاء والنحيب ، فأحس الفتى شغاف قلبه ينهتك ، ورأسه تغلى مراجله ، واقترب منها يقول فى تلعثم :

أنا أكرهك يا « هنية » ؟

فأشرعت إليه عيناً تشرق بالدمع ، وفى نظراتها تعرف واستخبار ، فوقف حيالها يحكم أوصاله ، ويقهر عاطفته ، فإذا هى تلقى برأسها على صدره ، ويداها تتشبثان بمنكبيه ، وجفناها ينسدلان ، وخيل إليه أنها توشك أن تتهاوى ، فألفى نفسه يطوقها بذراعيه ، وكانت بينهما فورة من تقبيل وعناق !

وأنبهتهما من نشوة الصبوة أصوات حملها النسيم من بعيد ، فتطلعت أعينهما هنا وهنالك ، فاستبانت لهما على جسر الترعة أشباح سيرها وئيد ، فارتجفت « هنية » وهى تقول :

هذا أخوك فى صحبة بعض مستأجرى أرضه .

وقفزت تدخل الدار ؛ فاتخذ الفتى طريقه فى الحقول يطيل سيره ، وهو يحاول أن يراجع صحوه من سكرة تلك الساعة .

وعاد الفتى إلى الدار ، فوافق أخاه جالساً إلى صينية الطعام ،

وقد شرع يصيب عشاءه ، فلما وقع بصر الشيخ على أخيه ، صاح به وفى قوله رنة فرح واستبشار :

أين كنت ؟ ما أطيب الليلة ! . . . أقبل . . . أقبل . . .

فوقف الفتى حائراً لا ينبس ، وواصل الشيخ قوله متضاحكاً :

سنة كلها خير وبركة . . . لقد أجرنا الأرض الليلة بقيمة فاقت ما كنا نؤمل . . . الحمد لله . . . تعال فخذ نصيبك معى من الطعام .

فجلس الفتى إلى الصينية قبالة أخيه ، وطفق يأكل ، يده إلى فمه تلقى باللقيمات وترجع إلى الصينية تصيب منها عوداً على بدء ، وذلك على غير وعى منه ولا تيقظ ، عبثا يحاول أن يلملم ما تشعث من فكره ، ويضبط ما اهتاج من أعصابه .

وفى الفينة بعد الفينة تهل « هنية » على الحجرة بجديد من الصحاف تارة وبقلة الماء تارة ، وهى تسير ممتقعة الوجه ، مسترخية الجفنين ، لا تستطيع لخطوها وزناً .

وما إن تقبل على الحجرة ، حتى ينكس الفتى رأسه ، ويمضى فى الطعام متشاغلا به عجلان ، ولم تكن « هنية »

تلبث إلا ريثما تضع الأشياء فى مواضعها وتعود أدراجها على الفور .

أما زوجها الشيخ ، فكان متطلقاً يثرثر فى حديثه عن الإجارة ، وهو بما ظفر به مغتبط تياه .

وبغتة ، والفتى منكبّ على صحفة طعامه ، تطن حول سمعه كلمات أخيه لا يعى منها حرفاً ، أزعجه من غفوته سقطة جسم فى الحجرة ، وتحطم بعض الآنية . فالتفت يتعرف الأمر ، فإذا أخوه ينهض مسرعاً إلى زوجه ، وقد تهاوت على الأرض ، وانزلقت من يدها الصحاف ، وسمع أخاه يقول :

ما بك يا « هنية » ؟

فاعتدلت المرأة تصلح شأنها ، وهى تهمهم :

لا شيء . . . أصابنى دوار !

وأنهضها الشيخ بين يديه ، وصحبها إلى مخدعها قائلا لها فى تحنن :

استريحى قليلا .

ولزمها حيناً يعنى بها ويلاطفها ، والفتى ماكث فى مكانه يرقب ما يجرى مخبول النظرات ، كأنه تمثال من حجر ،

لا يملك لنفسه من حراك .

ورجع الشيخ إلى مكانه من صينية الطعام يستأنف عشاءه ، وقال للفتى :

أجهدتْ المسكينة نفسها فى أعمال الدار .

ولما لم يبادله أخوه الحديث ، ممسكاً عن الطعام ، أردف قائلا وقد رفع إليه بصره :

مالك لا تأكل ؟

فعالج الفتى أن يجيب ، وبعد لأى قال متحشرج الصوت ، يزيغ بصره عن أخيه :

اكتفيت !

وأعجب ما كان من أمر الفتى أنه كان فى هذه الساعة لا يطيق أن ينظر إلى أخيه ، وأن يتابع الحديث معه . . . إنه ليجد فى نفسه طارئاً من الشعور بأنه يمقت أخاه ، وينكر عليه حظه من الحياة !

وهبّ واقفاً يطلب الخروج ، فسمع الشيخ يقول له :

إلى أين ؟

— إلى المسجد ، لأغلق بابه . . .

وأدبر عن الدار ، تقوده قدماه إلى البقعة التى كان فيها منذ قليل مع « هنية » يستمرئان متعة اللقاء . . . وما هى إلا أن طاف ببصره يمنة ويسرة ، ثم انخرط فى نشيج وبكاء ، وظل على حاله فترة ، وكأن روحه تذوب فى مسيل الدموع !

ولا ينسى الفتى كيف قضى تلك الليلة العسراء ، فقد مرت به ساعاتها أرقاً تتقاذفه الأركان والجدران ، خلف الدار ، فإذا غلبته إغفاءة تمثل له شبح أخيه الشيخ شائه الوجه ، تتلظى عيناه ، فى يده يلتمع سيف المسجد الخشبى ، وما يلبث أن يهوى به على جسد الفتى فى قساوة وضراوة يقطعه إرباً إرباً ، فيصحو الفتى مذعوراً محموم الأوصال كأنما يريد أن ينسلخ من جلده .

ولم تكد تتجلى عنه ظلمات الليل ، وتنضح جبينه أنداء السحر ، حتى سكنت سورته ، وغشيه سبات ثقيل . . . فلما اعلا الضحا ، وأراد أن ينهض ، خانته قواه ، واستشعر الخور يملك عليه جسده كله ، فجلس إلى جذع من جذوع النخيل ، والفتور ينجاب عنه شيئاً بعد شىء . وفى الحين بعد الحين تسنح لخاطره بعض الصور ، فيثور عليه الضمير ، وتخزه ندامة .

ونادى المؤذن لصلاة الظهر ، فلباه الفتى قاصداً المسجد ، وهناك وافق أخاه ، فسارع إليه يعتذر من التخلف بألوان من الأكاذيب . . . وما عتم أن هبط على يد أخيه مرتجفاً يقبلها غير مرة ، وهو يقول :

سأكون دائماً طوعك ، أبتغي مرضاتك . . . فكن راضياً عني .

فقال له الشيخ فى تحنان :

أنا راض عنك دائماً . . . هداكَ الله ، ووفقك للخير ، وعصمك من الشرور والآثام . . .

فسما الفتى بعينه إلى وجه أخيه ، فطالعته قسماته تتجلى فيها محبة وإخلاص ورضا .

وأبى الفتى أن يريم المسجد بقية يومه ، فلما أسدلت العشية أستار الظلمة ، كان الفتى قد أقسم بينه وبين نفسه على أمر ، وعول على أن يبر بقسمه أبد الدهر . . . لقد لطف الله به فيما جرى من ملاقاته الآثمة لزوج أخيه ، ولن يعود لمثلها ما بقيت فيه حياة .

وتوالت على الفتى أيام قضى أكثر ساعاتها فى المسجد ،

يطيل الصلاة ، ويكثر التسبيح ، وكان لا يتوخى الدار إلا عند الضرورة القصوى ، بمحضر من أخيه لا بد . . . فأما « هنية » فكان لا يكلمها إلا لماماً فى اقتضاب ، متحاشياً أن تلتقى عيناها بعينيه ، وأما صفارته فقد هجرها فى مرمى بعيد ، لا ترطبها أنفاسه العذاب !

وانقلب الفتى ناسكاً وقور السمت ، صلب القسمات ، يريد نفسه على ألوان من التقشف والشظف . ولكنه أدرك من أمره أنه كان سريع الذهول ، طالما أخطأ فى صلاته ، وطالما شرد فكره وهو آخذ فى تسبيحاته ، فإذا هو تتراءى له أطياف لا يكاد يتبينها حتى ترتعد فرائصه ، وهو يهمهم :

إنه معها . . . إنها له . . .

ويرجع إليه ما عزب من صحوه ، فيضرب جبهته بيده ، هاوياً على سبحته ، يستغفر الله العظيم !

وتواردت الأيام على الفتى تدور به فى آفاق شتى ، يقبل على عبادته حيناً ، وتلعب به الوساوس والتصورات حيناً آخر ، وهو فى عامة أمره يجاهد نفساً باتت فريسة الحيرة والقلق .

وبينما يكون الفتى مطمئناً إلى أنه ملاك زمام شعوره ،

إذا به بغتة يروعه هتاف تتردد أصداؤه فى أحناء صدره ، فيدوى فى مسمعه صوت يقول :

إنه معها . . . إنها له !

ويخرج هائماً على وجهه ، لا يعرف إلى قرار من سبيل .

وذات عشية ، وقد جهدته نوازع نفسه الجياشة ، وطال به التطواف فى أطراف الحقول ، تحت جنح الليل ، ألفى نفسه بعد لأى تجاه المسجد ، فدخله فى استسلام ، واستلقى على الحصير يبيح لأوصاله أن تسترخى ، ولوعيه أن يغيب . . .

وفيما هو على حاله تلك ، إذ شعر بيد تلمس كتفه ، فرفع جفنيه يتبين فى ضوء القمر المنساب من الكوة ، وما هى إلا أن وثب مذعوراً كأنما لسبته عقرب !

إنها « هنية » عينها ، زوج أخيه ، يلمحها فى تلك الساعة الواغلة فى صميم الليل ، وفى ذلك المكان الذى ليس فيه سواه .

وسألها فى تلعثم :

فيم جئت ؟

— لم تحضر إلى الدار طوال يومك !

ــ وما شأنك بى ؟

فتدانت منه تأخذ بكتفه وهى تقول مبهورة الأنفاس :

لم يبق لى صبر . . . جئت لأراك فى خلوة . . .

ــ أنسيت يا « هنية » أن لك زوجاً هو أخى . . . أنت له . . . أنت له . . .

ــ بل إنى لك دون سواك .

وتشبثت بصدره تتعالى تنهداتها وهى تقول :

لا تكن جافياً قاسى القلب . . . كفى ما كابدت لأجلك من عذاب !

وانتظمت جسمان الفتى انتفاضة عارمة زلزلت كيانه ، وأوقدت فيه ناراً حامية ، فدارت يداه على الفور بالمرأة تطوقها وتهصر عودها ، وهوى عليها يقبلها منهومة شفتاه ، وهو يردد فى أنفاس تتلاحق :

أنت لى . . . لى أنا وحدى !

ولبث الفتى مع « هنيّة » ساعة من ساعات الغرام العنيف . . . ساعة رائعة يستطيع الفتى أن يقسم لك غير حانث أنه قد أصاب فيها من النعيم ما لم يصبه أحد منذ خلقت الأرض . . .

إنها فى حساب الزمن ساعة، ولكنها فى الحق أحفل عنده بالمتعة والنشوة من أعمار طوال .

نام الفتى وصاحبته متعانقين ، لا يعنيهما من الوجود شىء ، حتى لاحت فى الأفق تباشير الفجر ، ولم توقظهما إلا طرقات بالباب ، يتبعها صوت ينادى :

يا « سرحان » . . . افتح يا « سرحان » . . .

فقالت المرأة للفتى فى همس راجف :

هذا أخوك . . .

وتواصل الطرق على الباب ، وتابع الصوت نداءه :

يا « سرحان » . . . افتح يا « سرحان » . . .

فوجد الفتى نفسه يجيب عالى الصوت :

سأفتح . . . سأفتح . . .

ولم تجد المرأة بداً من التسلل ، صاعدة إلى سطح المسجد ، على حين اتخذ الفتى طريقه إلى الباب يفتحه ، ودخل أخوه مقطب الجبين يقول :

أما زلت تنام فى المسجد يا « سرحان » ؟ . . . أليست لنا دار تسعك ؟

– سرقتنى إغفاءة ، بعد صلاة العشاء ، فامتد بى النوم على الرغم منى . . .

وجلس الشيخ صامتاً بعض وقت ، ثم استأنف يقول فى قلق :

لقد صحوت من نومى ، فلم أجد « هنية » فى الدار . . .

فقال الفتى مأخوذاً يعانى التلفظ :

كيف ذلك ؟ أين ذهبت ؟

فقال الشيخ هين الصوت :

خرجت . . . أتكون قد ذهبت لتملأ الجرة ؟ أتكون فى بيت جارة لها تخبز ؟

فهمهم الفتى :

لا بد أن يكون ذلك لا بد . . .

وخلا الشيخ لنفسه صامتاً هنيهة ، ثم نهض قائلا :

هلم إلى الصلاة يا « سرحان » .

ومثل الفتى عن كثب من أخيه يركع ويسجد ، وكانت صلاة آثمة باركها الشيطان .

وشرع الناس يتوافدون على بيت الله ، يؤدون له مكتوبة

الصبح ، والفتى يقاسى من حاله محنة عسراء ، فما شهد أخاه يبارح المسجد حتى انسل صاعداً إلى السطح وهو يتلفت ، وما كان أشد دهشته حينما ألفى السطح خالياً ليس فيه من إنسىّ . فطوف ببصره غير مصدق ، وجعل يذرع السطح متأملا كل رقعة فيه ، حتى كأنه اختبل ، وانتهى به التطواف إلى حافة السطح خلف المسجد ، وأفلتت منه نظرة إلى الأرض ، فندت من حلقه صيحة مصعوق . . . وسرعان ما ألفى نفسه ينحدر على الجدار ، حتى بلغ مسقط «هنية» فإذا هى ملقاة تئن فى خفوت ، فأقبل عليها فى هلع ولهف ، وهو يسائلها :

ما بها ؟

فعالجت أن تجيب فى عناء :

لقد تحطمت يا « سرحان » . . . تحطمت . . .

وكانت تعض على شفتيها فى عنف ، لتكتم التأوه ، فاحتضنها الفتى يواسيها ، ولا يدرى ماذا هو قائل ؟ وماذا هو فاعل ؟ فسمعها تهمهم :

أوجاعى لا تطاق . . . إنى أموت !

وما وجد الفتى بداً من أن يحتملها فى رعاية واحتراس ،

والأسى يمزق نياط قلبه ، ورأسه تتضارب فيه المخاوف .

وانتحى بها بيت «أم عبد الجليل» وكانت مستودع سره ، عطوفاً عليه ، وفية له ، فأفضى إليها ببعض الأمر ، وناط بها تدبير المخرج .

فنهضت المرأة ناشطة إلى دار الشيخ تنهى إليه الخبر . وما أسرع أن نقلت « هنية » إلى دار زوجها تحوطها العناية والتعهد .

وأشاعت «أم عبد الجليل» أن « هنية » قدمت عليها قبيل الفجر لتخبز ، وصعدت إلى سطح الدار ، تجلب منه الوقود ، فزلت بها القدم ، وسقطت تلك السقطة الحاطمة .

ومضى يومان ، تكابد فيهما « هنية » آلاماً مبرحة ، والفتى عائذ بتلك البقعة الخالية وراء الدار ، حيث ارتشف أول قطرة من غرامه المحرم . فكانت تنوبه ثورات تحتدّ به ، حتى ينحى على شعره تقطيعاً ، وعلى جبهته لكماً وجيعاً ، وهو يغمغم مختنق الصوت :

أنا الذى يجب أن يعذب . . . أنا الذى يجب أن يموت !

وقضت «هنية» نحبها فى الغداة ، وشيعت جنازتها إلى

جبانة القرية على النحو المألوف فى عرف الريف .

وتجلد الفتى أول الأمر ، يكبت مشاعره فى جهد ، فقام بما وكل إليه من شأن المأتم ، ولكنه كان يؤدى عمله فى تبلد ووجوم . وكثيراً ما تزدحم عليه التصورات والأخيلة ، فيحس كأنما هو يهوى من حالق ، أو كأنما هو تنخسف به الأرض .

وبعد أيام عراه انقلاب ، فلم يعد يطق اللبث فى مكان ، وإذا هو يهيم على وجهه فى المطارح القصيّة ، كأنه ثور انفك من قيوده ، فهاج وماج .

وأسلمه ذلك بعد حين إلى انهيار وخمول ، فلزم الدار أكبر وقته ، وهو يحاول جهد إمكانه أن يتجنب مواجهة أخيه ، فإذا التقيا على رغم منه وكره ، أحس كأنما أخوه يوشك أن يسأله :

كيف سولت له نفسه أن يفعل ما فعل ؟

وعلى مرّ الأيام أحس الفتى بأن سره ينمو فى صدره ، ويكاد ينطق بجريرته الشؤمى ، وأن العيون من حوله تقول :

خذوه !

وكان إذا برح الدار، تنقّل فى أرجاء القرية ، متنكباً

عن المسجد لا يقربه ، فجاءه أخوه ذات يوم يسأله :

فيم تـخلفك عن بيت الله ؟

فلم يجد الفتى مندوحة من الذهاب إليه ، ومعاودة القيام بعمله فيه . . . وفيما كان يروح ويجىء ، تتمثل له مشاهد ليلته التى قضاها مع « هنية » فيه ، فينقبض صدره ، وتغيم عيناه ، وتنهشه الأفكار السود .

ولما جن به الليل فى المسجد ، أحس الخوف يدبّ فى أوصاله ، ويتسرب فى كيانه ، ولكأن أشباحاً مفزعة تدفّ حواليه ، وهمساً راعباً يطن فى أذنيه .

وما كاد المسجد يخلو من قصاده ، حتى عمد إلى الباب ليوصده ، وبينما هو فى طريقه إليه استشعر خفق أقدام فوق سقف المسجد ، فأرهف السمع ، ولقلبه وجيب دءوب . فألفى نفسه يهرع إلى السطح صاعداً ، وتراءى له على الحافة طيف يتردد ، فأقبل نحوه ، فانهوى الطيف دفعة ، ورن فى أذن الفتى وقع سقطته ، وتتابعت إليه أناته يتوجع . فانحدر الفتى على الجدار ليبلغ مسقط الطيف ، فإذا هو فى البقعة التى احتوت « هنية » منذ أيام جسداً ملقى يئن فى خفوت .

وحوّم الفتى بعينيه على حذر وتخوف يبحث عن الطيف ، فلم يجد له من أثر ، وما إن خطا خطوة حتى صادف أخاه الشيخ قادماً من جانب المسجد ، فبوغت بمرآه ، وما عتم الشيخ أن قال فى استنكار :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! . . . أنت هنا ؟ . . . فيم بقاؤك فى الظلام ؟ !

فوجم الفتى واقفاً يدور رأسه ، وتزيغ عيناه ، ويبدو ارتباكه واضطرابه . . . واستأنف الأخ قائلا :

ماذا بك ؟ ما الذى تخفيه عنى ؟ . . . تكلم !

فصاح الفتى فى غير وعى :

لا تسألنى . . . لست مجيبك . . . هذا قضاء الله .

فتعجب الأخ من قوله ، وتدانى منه يتفرس فيه ، فرده الفتى عنه يصيح مخنوق الصوت :

لا تقربنى . . . لا تقربنى !

وانطلق يهيم على وجهه كمن أصابته جنّة . . .

وكان هذا آخر عهده بأخيه ، وبقرية أهليه .

وتقاذفته البلاد على تنائى أطرافها ، يحيا حياة الطريد

الشريد ، لا أنيس له ولا سمير إلا تلك الصفارة الحنون .

وها هو ذا يستقر به المطاف فى هذه المدينة ، حيث تراه ! . . . »

* * *

ونكس زامر الحىّ رأسه ، وقد نال منه الجهد ، فقلت وقد شجانى حديثه :

لماذا لا يستغفر الخاطئ ربه ، مستأنفاً تقواه ؟ إلى متى يتخلف عن بيت الله ؟

فرفع الرجل وجهه إلىّ ، وقد برقت الدموع فى محجريه ، وغمغم :

أترى يغفر الله له ما قارف من إثم ؟ أترى ينفسح لمثله المسجد الطهور ؟

وما هى إلا أن اجتذب صفارته من صدره ، وانكب عليها يوقع لحناً رقيقاً يتفطر من ضراعة وندامة وحنين !

مظاهرة ...

اتخذ « حسنين أفندى » سبيله إلى داره ، ضائق الصدر ، على جبينه قطوب ، تسرع به قدماه ، مديد القامة ، يهتز عوده فى السير اهتزازة النخلة حين تعتورها الرياح .

لقد كان فى مشربه المختار ، يقضى على مألوف عادته فترة الأصيل ، بيد أنه بادر إلى ترك المشرب بعد أن بنى عزمه على ألا يعود إليه ، حتى تستقر الحال ، ويستتب الأمان .

خير له أن يعتكف فى داره ، متنكباً عن دواعى القلق ، وأسباب الاضطراب ، ناعماً بالسكينة والطمأنينة فى مستقره الأمين ، آنساً بذلك السرب الألوف من قططه ، مسترخياً على كرسيه الوثير ، يستروح نسمات العشىّ من تلك النافذة التى تريه وجه الطريق .

بُعداً للمشرب فى ذلك العهد العصيب . . . فإنه لم يعد يتيح لقصّاده ما كان يتيح لهم من متعة وبهجة وإيناس .

كان الرجل فى مواضى أيامه يتوخى المشرب فى الأصائل ،

لكى تطالع عيناه أفواج الناس ومواكب النور ، ولكى يتلقط سمعه ما عسى أن يكون من أخبار وأحداث ، ولكى يطارح جلساءه أطايب النكات والأفاكيه . . . وهو فى الفينة بعد الفينة يشنف أذنيه بالاستماع إلى ما ينقله المذياع من الأغانى والأناشيد ، فإذا أصاب من ذلك كله ما أصاب ، قفل إلى الدار ليستقبل فراشه رضىّ النفس هادئ الأعصاب .

وماذا يراد منه أن يفعل وقد ذرّف على الستين من عمره ، وبليت قواه فيما مارس من وظائف حكومية أسلمته إلى التقاعد ؟

إنه فى مرحلته الجديدة من حياته ليعد الساعة التى يقضيها فى المشرب هى الساعة الخصيبة فى يومه الجديب .

أما الآن فلكأن الزمان قد نفس عليه هذه الساعة الطيبة ، وأبى إلا أن يحيلها ساعة فزع واهتياج .

ماذا بقى فى المشرب يحدوه ويستهويه ، بعد أن صار أشبه ما يكون بحومة قتال تدوّى فيها جلبة المناقشة والحوار ؟

الناس اليوم فى المشرب زرافات يتنازعون الصحف ، ويتبارون فى قراءتها والتعليق على ما فيها ، عالية أصواتهم ، ثائرة نفوسهم ، لا يفترون ولا يملون .

وليس عجباً أن يجرى ذلك فى المشرب ، والشعب كله يرتقب أن تتمخض الأيام الحاضرة عن موقف حاسم فيه تقرير لمصير البلاد .

لم يعد « حسنين افندى » يجد فى المشرب من يناقله الحديث فى أخبار الناس وأسرار البيوت ، يتخذ منها مثاراً للوم والاستنكار ، وسبيلا إلى التلهية والسلوى .

وما كان لأحْلاَس المشرب أن يشغلوا أنفسهم بما كانوا يشغلونها به من قبل ، والقوم فى طول البلاد وعرضها مصروفون إلى التأهب للكفاح ، واستقبال ما يطرأ من جسام الأحداث .

وهذا المذياع المهذار الذى كان طروباً ضحوكاً لا يسأم ترداد المهازل والمعابثات ، ما باله أصبح وقوراً محتشما كله جدّ وتزمت ، غناؤه تحميس للنفوس ، وأحاديثه تذكير بالواجب الوطنى ، وأنباؤه تمهيد للموقف الحاسم العتيد .

ما للدنيا من حول « حسنين أفندى » قد تبدلت ، فإذا هى عنف وقسوة ، وإذا هى دعوة إلى مقاومة ونضال ، وإذا هى فى مجمل أمرها ثورة أىّ ثورة ؟ . . .

ما شأن الرجل بهذا كله ، وهو فى شيخوخته يطلب الراحة

بعد التعب ، ويريد أن يستمرئ ما بقى من أيامه على ظهر الأرض سالماً معافى ؟

لقد أدى ما عليه للوطن ، فخدم الحكومة سنين طوالا ، طاهر الكف ، موفور الأمانة ، وخرج منها مشكور السعي ، حميد الأثر .

إنه ليذكر عهوده الغابرة ، فلا يفتأ يشيد بما كان يشيع فيها من أمن ويمن ورفاهية ، حيث لا موجب لثورة ، ولا دعوة إلى كفاح . . .

بلغ الرجل باب داره ، ورأسه تتناوح فيه الهواجس والأفكار ، فدخل عجلان يغلق الباب خلفه ، وقد واثق نفسه على ألا يغادر الدار حتى تنجلى العاصفة ، وتنزاح الغمة ، ويراجع الحياة سلام .

وكرت أيام لزم فيها الرجل مكمنه ، يصبح حيث يمسى ، ويمسى حيث يصبح ، لايزور ولا يزار ، ولا يعايشه من الناس إلا خادمه الصبي الذى يضطلع بمرافق الدار ويقوم على شؤون المطهى ، وليس له من أنيس إلا ذلك السرب الألوف من القطط ، يقضى معه أطيب الأوقات .

وفى إحدى الأماسىّ كان «حسنين أفندى» كشأنه متهالكاً على مقعده حيال النافذة ، يستنشى نسيم الليل ، ويرعى نجوم السماء ، وهو يستغفر الله من خطاياه ، وفى حجره قطه المختار «مشمش» يسترسل فى قرقرة كأنه يرتل بها صلوات وتسابيح !

وبينما كان الرجل آنساً بقطه ، يربت ظهره ، إذا هو على حين بغتة يكف عنه يده ، ويحدق إليه ، وما هى إلا أن همهم :

لقد أطلت المكوث معى ، حتى خدرت ركبتاى . . . أما آن لك أن تتزحزح ؟

وما لبث أن وكز القط فى غير عنف ، وهو يواصل قوله :

استيقظ يا صاح . . . أملكت ركبتىّ فأصبحتا لك وحدك؟ حقاً لقد أغرتك طيبة نفسى فجاوزت حدك .

وسرعان ما وكز القط مرات فى شدة وحدّة ، فرفع إليه القط رأسه يتبين : ما الخبر ؟ ولم يلبث أن تنحّى عن حجر سيده ، واثباً إلى أديم الأرض ، فى غير عناد ولا إنكار .

وجعل القط يتمطى ويقوس ظهره ، متعالياً به ، ثم قصد إلى إحدى النمارق ، فتكوّر عليها كأنه حلقة .

إن « مشمش » ليعجب من شأن سيده فى هذه الآونة . . .
ثمة شيء غير مألوف ، ثمة باعث على هذه الروح التى فقده بها « مشمش » ما كان يخصه به سيده من عطف .

لا مرية فى أن الرجل مغلوب على أعصابه ، ليس يملك لنفسه من قرار .

على أن « مشمش » لم يقم لذلك الانقلاب كبير وزن ، ولم يعره مزيد اهتمام .

ما برح « مشمش » يتبوأ مكانته فى الدار ، فهو عميد القطط غير منازع ، وهو موفور الحظ من رخاء وتنعيم .

واستأنف القط قرقرته عن كثب من سيده ناعم البال .

فألقى عليه الرجل نظرة حاسد ، وحدث نفسه يقول :

حقاً ما أسعد دنياك يا « مشمش» . أنت لاتحس ضيقاً ولا تلاقى من كرب . . . أنت تستمرىء حياتك بارئة من كل شوب . . . أكل ونوم . . . وهذه القرقرة التى تبعثها كأنما هى صوت معدتك الطحون ! . . . لو قضيت سجين الدار عاماً تلو عام لما فاتك من الدنيا شيء، لأنك حيوان أعجم لا تعقل ولا تفهم . . . أفحسبت الناس يماثلونك فى غباوتك وخمولك ،

يرضون أن تحتويهم الحوائط والجدران ؟ !

ونهض « حسنين أفندى » متبرماً متسخطاً يرمى القط بشواظ من عينه ، وملء نفسه زراية عليه ، واحتقار له . ولكن القط لم يعبأ بمايقول سيده ، وانخرط فى قرقرته المنسجمة ، وهو مكور يتداخل بعضه فى بعض ، حتى لا تدرى أين ذيله وأين رأسه ؟

وأدبر الرجل عن الحجرة يجتاب الدار ، وقد استبدت به الحيرة ، وعزّ عليه أن يستقر .

فى مثل هذه الساعة من أماسيه الماضية ، كان المشرب العامر الوضّاء يضمه إلى رفاقه ، حيث يثرثر ويقهقه ، ويسمع المعجب والمطرب !

أما هنا ، فى كسر البيت ، فإنه لا يجد من يتحدث إليه ، إلا هذا القط الخرف ، يتابع قرقرته المملولة التى تحاكى حشرجة الاحتضار !

وأحس الرجل بأن ريقه يغيض ، وأن حلقه يكاد يتشقق ، فرغب فى شربة ماء ، وذكر أنه طلب إلى خادمه منذ العصر أن يملأ القلل ، وأن يضعها على طنف النافذة البحرية ، فحث خطاه مؤملا أن يبل صداه بماء مثلوج .

ولما بلغ حافة النافذة ومدّ إلى القلل يده ، ألفاها ناضبة ليس فى واحدة منها قطرة ، فما عتم أن ثارت ثائرته ، وانبعث صائحاً :

يا « عبد الفتاح » . . . يا ولد يا « عبد الفتاح » . . .

وعدل عن النافذة ، متجهاً صوب المطهى ، وهو يدعو غلامه مرة بعد مرة ، وصوته تتجاوب به أرجاء الدار ، دون أن يظفر بمجيب .

وازداد الرجل من حنق ، وانطلق مهدداً :

سيرى . . . سيرى . . .

وفيما هو يذرع الحجرات ذهوباً وجيئة ، فتح الباب ، وبدا منه الغلام مقبلا يقول فى اهتياج :

سيدى . . . سيدى . . . خبر مهم . . .

فأشرع إليه الرجلُ نظرات احتقار ، وهو يحاول ضبط أعصابه ، وقال له :

أى خبر يا ولد ؟

ـــ خبر إلغاء المعاهدة . . .

فأخذَ « حسنين أفندى » ، وجعل يردد الجملة على لسانه :

المعاهدة ؟ . . . إلغاء المعاهدة ؟

فأعلى الصبى صوته بقوله :

لقد حدث هذا والله العظيم ! . . . بأذنى سمعته . . . انتهى الأمر . . . الحكومة ألغت المعاهدة الليلة !

وتوسط الصبى الردهة ، وصرخ قائلا :

فليسقط الطغاة . . . لا معاهدة بعد اليوم !

وشعر رب الدار بأن غلامه قد جاوز الأدب اللائق فى حضرة سيده ، وأنه قد رفع صوته متشدقاً أمامه ، مطلقاً للسانه العنان . . . فأراد الرجل أن ينهره ويزجره ، ولكنه ما لبث أن أمسك ، يحدوه باعث خفى لا يعرف له مأتى . . .

وعبرت فمه ابتسامة استخفاف وهو يقول رزين النبرة ، وقور اللهجة :

وهل تعلم معنى كلمة طغاة يا بطل ؟

فقال الصبى جريئاً :

نعم ، أعلم . . . فليسقط الطغاة . . . فليسقط المستبدون... الجلاء ، الجلاء ! . . . الوحدة ، الوحدة !

وما كاد ينتهى الصبىّ من قولته ، حتى ترامت إلى الدار

صيحات الشراذم من غلمان الطريق ، يرددون :

الجلاء ، الجلاء ! ... . الوحدة ، الوحدة !

وبهتَ الرجل ، وتمشت الرهبة فى أوصاله ، ومثل يستمع للهتاف المتوالى ، وهو يتزايل على مدّ الطريق .

فأما الغلام فإنه ما كاد يسمع ذلك الهتاف ، حتّى راح يتواثب ويصفق ، وينظر إلى سيده قائلا :

صدّقنى يا سيدى ؟ أتسمع يا سيدى ؟

وإذْ هدأت الجلبة تدانى الغلام من « حسنين أفندى » يقول :

أتريد عشاءك يا سيدى ؟

فأجاب الرجل مهزول الصوت ، يحاول عبثاً أن يلفظ كلماته فى فخامة وتنفخ :

لا أريده الآن . . .

وهمّ الرجل أن يأخذ على غلامه تقصيره فى ملء القلل ، ولكنه لم يزد على أن يشير إليه بيده أن ينصرف .

على أن الصبى لم يبرح مكانه ، بل شرع يقول لسيده ، وهو يهتز :

ستتألف غداً مظاهرة كبيرة . . .

وعلا الشحوب وجه الرجل ، وهو يهمهم :

مظاهرة ! مظاهرة !

ـ نعم ، مظاهرة كبيرة . . . تجوس خلال المدينة من أقصاها إلى أقصاها . . . مظاهرة تضم الطوائف كلها ، لكل طائفة رايتها . . .

وعمد الرجل إلى الباب ، يحكم إغلاقه بالمزلاج والمفتاح معاً . ولم يزُلْ عن الباب حتى استوثق من أمره كل الاستيثاق ، ورجع يجرّ خطواته إلى حجرته ، ملقياً بنفسه على المتكإ ، مهمهماً :

مظاهرة . . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! . . . ألا يتركون الناس فى طمأنينة وراحة ؟

وعمد ذقنه بيده ، وقد اعتلجت أفكاره تدير رأسه ، وتطوف به كل مطاف .

وبكرة أصبح الرجل يتفقد غلامه ، فلم يجد له فى الدار من أثر ، وعجب منه كيف استطاع الخروج ، والباب مغلق ، والمفتاح فى حرز حريز !

وعجل الرجل إلى المطهى ، يفتش ويتعرف ، فاستبان له أن كوة عالية قد انكسر زجاجها ، وفطن إلى أن الغلام قد اتخذ منها إلى الطريق مهرباً . . .

ووقف الرجل يضرب كفاً بكف ، وهو يهدر ويبصق ، ويصبّ لعناته على ذلك الغلام المتمرد الشغوب . بل على ذلك الزمن النكِد الذى صار فيه الغوغاء ذوى رأى وتدبير . يقحمون أنفسهم فى جسام الشئون والمعضلات .

وبقى الرجل وقتاً يزمجر ، فصكت سمعه صيحة عالية أفزعته ، ودنا من إحدى النوافذ على ترقب ومحاذرة ، فانجلى له أن الصوت ينبعث من المذياع فى بيت الجار . . .

وأرهف الرجل سمعه ، يتطلع ، فتناهت إليه عبارات حماسية تتردد فيها كلمات : « توحيد الصفوف » و « الكفاح حتى يتحقق الجلاء » و « بذل النفوس فى سبيل الوطن » . . .

وما أسرع أن تواردت على الطريق زمر من الناس يهتفون ويتصايحون ، فعلم الرجل على غير شك أن المدينة فى هذا اليوم يموج فيها تيار كهربى فوار يشبه اضطراب الجو قبيل العاصفة!

ولم يتمالك الرجل أن يتوخى نوافذ حجراته ، فيحكم إقفالها جميعاً .

واستقر به المقام فى حجرته يستريح ، فسمع طرقاً على الباب ، فتصامم عنه ، ولكن الطارق لم يمل ولم ييأس ، فنهض الرجل إلى الباب على كره ، وسأل :

من ؟

فكان الجواب :

اللبّان .

ففتح الرجل أغلاق الباب فى احتراس ، واستقبل « المعلم ستد » وهو يناوله وعاء اللبن ، ويحييه بقوله :

صباح الخير يا « حسنين افندى » .

— صباح الخير يا معلم .

وهم أن يرد الباب ، ولكنه وجد نفسه مدفوعاً إلى مجاذبة اللبّان بعض الحديث ، وإذا هو يقول :

كيف الأحوال يا معلم ؟

— الأحوال طيبة . . . البلد كلها على قدم وساق .

— ولماذا ؟

— ألم تسمع نبأ المظاهرة ؟

— سمعت .

ـ ستشترك فيها بلا ريب ، فإن لذوى المعاش من الموظفين مكاناً خاصاً فيها . . . ولهم راية خاصة بهم . . .

ـ راية ؟

ـ نعم ، راية . . . ألا علم لك بهذا ؟

ـ أعلم . . . أعلم . . .

ـ أما راية اللبانين فهى راية عظيمة . طولها خمسة أمتار . . .

ـ وللبانين راية أيضاً ؟

ـ أنكون أقل منكم وطنية يا « حسنين أفندى» ؟ . . . كلنا مصريون !

ـ عفواً . . . لست أقصد . . .

ـ لقد اختارنى اللبانون لأكون فى مقدمة الفوج : أحمل الراية ، وأطلق الهتاف . . .

ـ أى هتاف ؟

فعلا الرجل بصدره ، وأرسل فى حلقه صيحة مجلجلة ، يقول :

الجلاء . . . الجلاء . . . لا احتلال بعد اليوم !

فحدق « حسنين أفندى » إلى « المعلم سند » هنيهة ، ثم

قال له وهو يبتسم فى تخابث :

أنت تعرف معنى الجلاء حتما . . .

— وكيف لا ؟ أجاهل أنا ؟

— وماذا يعود عليك من الجلاء يا معلم ؟

— نعيش فى هناء ورخاء . . . الخبز يرخص ، والملابس تتيسر ، والخير يعم . . .

واقترب « المعلم سند » من محدثه ، آخذاً بيده ، يشد عليها ويقول :

صلّ على النبى . . . أزمة وتنفرج . . . الله معنا !

ودخل « حسنين أفندى » مسكنه ، مغلقاً بابه عليه ، ومضى يسوق رجليه ، وهو يجمجم :

لذوى المعاش مكان خاص فى المظاهرة . . . ولباعة اللبن راية وهتاف !

واتجه الرجل إلى المطهى ، وفى أذنيه أصداء حديثه مع بائع اللبن ، وأقبل يعدّ الفطور لنفسه وللقطط ، وكان قد تعود أن تحيط به فى مثل هذا الوقت ، تستنجزه الطعام فى مواء وهرير ، فأدهشه أنه لا يرى لقط ظلا فى هذا الصباح ، فدار بعينيه فى

الحجرات ، يدعوها بلهجته التى ألف أن يدعوها بها ، ومضى يناديها بأسمائها :

« مشمش » . . . « بلبل » . . . « فواكه » . . . أين أنت أيتها القطط المتكاسلة ؟ . . . هذا طعامك قد أعد .

واشتد العجب بالرجل حين انتظر طويلا ، دون أن يستجيب له من القطط أحد . . . فرجع إلى المطهى ، وحانت منه نظرة إلى الكوة العالية التى انكسر زجاجها ، وانطلق الغلام منها ، فغمغم يقول :

أترى القطط قد هربت أيضاً ليكون لها نصيب المشاركة فى هذا اليوم المشهود ؟ إن هذا السرب من القطط لم يبرح البيت منذ عهد عهيد ، فما باله فى هذا اليوم يلتمس له مخرجاً إلى الطريق ؟

وبلغت سمع الرجل أنغام موسيقية يبعث بها مذياع الجار ، وقد راسلها نشيد حماسى فوار . . . فلبث الرجل يصغى وقد راقه اللحن ، وما هى إلا أن جاشت نفسه ، واعتلجت فيها مشاعر . . .

وألفى أصابعه تنقر حافة المائدة نقرات يتابع بها وقع الأنغام ،

ثم ما عتم أن راح يخطو خطوات راتبة كأنها خطوات جندى . . . وانتبه لما يفعل ، فأدركه خجل . . . أطفلٌ هو تملك لبه أناشيد الصبيان ؟

وشرع الرجل يطعم ، وأنغام المذياع تتوارد على أذنيه ، حاملة إليه ألوان الأهازيج ، فكان يرعيها سمعه ، فتسرى فى أوصاله باعثة فيها الهزّة والانتفاض .

وانكب على طعامه يلتهمه التهاماً ، وخفتَ صوت المذياع شيئاً فشيئاً ، حتى انقطع ، فحمل الرجل قدح القهوة إلى حجرته ، يترشّفه فيها على مهل ، وقد حاصرته ألوان من الخواطر والأفكار تسبى مشاعره . . .

وفى الفينة بعد الفينة تتهادى إلى سمعه أصداء تصايح وهتاف ، فكان يشرئب إلى النافذة ، مستطلعاً ما عسى أن يكون ، ثم يتبوأ مقعده يترشف ما بقى من قهوته .

وعلى حين بغتة سمع صوتاً جهيراً ينادى :

فليسقط الغاصبون !

فانبعثت أصوات أخرى تردد النداء فى حماسة واحتداد .

الغاصبون . . . الغاصبون !

وحملته الذكرى إلى عصر شبابه ، حين كان موظفاً طاوع حركة الإضراب العام إبان الثورة الوطنية . . . إنه لم ينس حتى اليوم وقفة المذلة والمهانة أمام المفتش الإنجليزى وهو شامخ الأنف ، منتفخ الشدقين ، يبالغ فى تعنيفه ، ويستهزئ بوطنيته ، وينتقم منه ما وسعه سلطانه عليه أن ينتقم . . .

إن « حسنين أفندى » ليشعر الآن بأن هذه الصورة القديمة كأن يداً تخرجها من زوايا النسيان ، وتجلو عنها غبار الزمان !

الغاصبون . . . فليسقط الغاصبون !

وضاق الرجل بمجلسه ، فقام يتسكع فى الحجرات ، وعرج على المطهى ، فألفى طعام قططه لم يمس . . . يا عجباً لهذه القطط ! . . . كيف استخفت فلم تعد لكى تتناول فطورها ؟ وكيف رضى أن يتابعها فى هذا الصنيع قطه المختار « مشمش » ، ذلك القط الهرم الذى يلازمه ويصافيه ؟ أوَيجحد « مشمش » فضل سيده عليه ، ويتركه وحيداً فى هذا اليوم الصاخب العصيب ؟

وجنح الرجلَ إلى النافذة يطل ، فإذا البيوت تنفض أهلها من شبان وشيب ، وإذا الناس يجتمع بعضهم إلى بعض ، وهم

يتسايرون فى حمية ، ويتنافلون الأحاديث فى جدّ ، متجهين جميعاً صوب الطريق العام . . .

ومن ثم أخذت الأصوات تترسل على سمع الرجل متواصلة متميزة ، تحمل ألوان الهتافات والنداءات ، فترك الرجل نافذته يغدو فى الحجرة ويروح ، وفى نفسه حيرة ، وفى صدره حرج .

ها هو ذا قد تخلى عنه غلامه ، وتخلت عنه قططه ، وبقى وحده فى عقر داره يخيم عليه الركود والخمود ، على حين أن المدينة كلها على قدم وساق ، وأن الناس أجمعين متظاهرون يحتويهم الطريق !

وأعدّ الرجل لنفسه قدحاً آخر من القهوة ، وبلغ به الاهتياج كل مبلغ ، فكان يتنقل فى أرجاء مسكنه ، والقدح فى يده ، تارة هو فى المطهى تصافح سمعه الأناشيد الحماسية ، وطوراً هو مطل من النافذة يشهد الناس متزاحمين فى ضوضاء . . .

ولمحت عينه فوجاً من فتيات صغيرات ، تكسوهن أردية بيض ، وفى أيديهن رايات خضر ، وعلى وجوههن تهلل وإشراق كأنهن قد خرجن فى يوم عيد ! . . . فجعل الرجل يقفوهن بنظراته ، وقد أخذن بمجامع قلبه . . . يا لله ! . . . حتى

هؤلاء الصغيرات لهن فى مظاهرة اليوم نصيب !

وتزايلت رويداً حركة الطريق ، وقلت السابلة ، وتضاءل الصخب ، وأخيراً أقفرت المسالك ، وأصبحت الدور خاوية قد أطبق عليها صمت . . .

لقد نزح الأهلون إلى الميادين ، وإن « حسنين أفندى » فى وحدته وسكونه ليسمع على البعد حسيس الضجة وأصداء التنادى والهتاف !

وألقى الرجل قدميه تدفعانه إلى الباب ، فتسلل خارجاً منه ، ووقف على رأس الشارع حيران يتلفت . . .

واستبانت له بعض أصوات ، فجعل يرهف لها السمع ، وما لبث أن انطلق صوب الطريق العام . . .

وكان كلما مضى خطوات تجلى له الضجيج ، كأنما يشده نحوه ، ويهديه إليه .

وما هى إلا أن أشرف على مزدحم الناس، فانتبذ من الطوار مكاناً يتطلع منه ، وبدت له أفواج المتظاهرين كأنها الموج يلتطم ، فانعقدت بها عينه يرقبها فى حمية واهتياج . . .

إن هذه الخلائق فى شغل بما هى فيه من الأمر العظيم . . .

فلقد جاز به فى غمار الزحام أناس ممن يعرف ، فلم يأبهوا له ، وتابعوا مسيرهم فى الموكب ، لا يصرفهم عن أمرهم شىء !

ولاح له بين الزحام بائع اللبن « المعلم سند » ماثلا على أعناق رفاقه من الباعة وهم يحملون أوعيتهم الكبيرة بين أيديهم وقد اتخذوها صنجاً يضربونه . . . وهو يهتف فيهم بأعلى صوته :

فليسقط الغاصبون !

والرفاق وراءه يرددون الهتاف ، والجموع من حولهم يصفقون معجبين متهللين . . .

ورجف قلب « حسنين أفندى » وبرقت عينه ، وأحس قدمه تنساب به إلى الأمام ، فسار لا يدرى أية غاية يقصد ؟ حسبه أنه مع الناس يسير !

وما لبث أن دارت به الزحمة ، واحتوته ألفافها المتشابكة ، وضغطته الجماهير ترج به ، والنداءات تصك سمعه ، فاستشعر الدم فى عروقه يتوقد ، وأعانته قامته المبسوطة على أن يطوف ببصره يمنة ويسرة ، فراعه ذلك البنيان المرصوص الذى يمضى قدما .

لم يعد للطريق وجود . . .

فهذا الذى يراه « حسنين أفندى » ليس إلا بحراً متدفع

الموج ، قوىّ الهدير !

لم يعد للطريق وجود . . .

فهذا الذى يزخر به المكان ويعج ليس إلا قلب أمة يخفق ، قلباً عزيزاً طعنته الأحداث ، فتسايل منه الدم قانياً يشعل المشاعر ويوقظ الأرواح . . .

وما عتم الرجل أن انفجر صائحاً :

لا استعمار بعد اليوم . . . فليسقط الطغاة !

فإذا الأفواج المطيفة به تردد صيحته ، وإذا هو يواصل النداء أجهر صوتاً وأشد عنفاً ، فلا تمل الجموع ترديد ندائه فى قوة ونشاط . . .

وراعه أمره . . . أحقاً هو صاحب ذلك الصوت المدوّى؟ أحقاً هو باعث تلك النداءات ونافث ذلك الحماس ؟

وزهيت نفسه بهذا الصنيع ، وندّت منه نظرة إلى الراية فى يد حاملها ، فألفاها ترنح وتوشك أن تتهاوى ، فما أسرع أن امتدت يده ينتزع ساريتها ويسمو بها ، فخفقت الراية تظل الرءوس ، فتعالت الصيحات « لحسنين أفندى » تحييه وتشيد به فى إكبار .

وما هى إلا لحظات حتى احتملته الناس على الأعناق ،

فشمخ بالراية يجأر هاتفاً برفعة الوطن وسقوط الغاصبين .

وتقدمت الجموع في سيرها حتى وردت ميدان الثورة ، وهنالك تحلق كل جمع حول خطيب يفيض في تكريم البطولة وتمجيد الاستشهاد .

وما كاد « حسنين أفندى » يتوسط الميدان في جمعه ، ويسمع الخطباء بين الجموع متنافسين ، حتى ألفى نفسه يرتجل الكلام ارتجالا ، ويرسله إرسالا ، والسامعون له يوالونه بتصفيق الإعجاب .

وبغتة اختنق الكلام فى حلق الرجل ، وما لبث أن ترنح جسمه يريد أن ينقض ، وريع الناس لذلك ، فسارعوا إلى الرجل ينزلونه ويتفقدون أمره ، ولا يدخرون وسعاً فى إسعافه وإنعاشه .

وفى ضحوة غد كانت الوفود يزحم بعضها بعضاً قبالة الدار التى يقيم فيها « حسنين أفندى » وبعد قليل سارت هذه الوفود يتقدمها نعش الرجل مسجى بالراية الخضراء ، كأنما هو ما برح فى مظاهرة أمس : يحمل الراية ، ويقود الجمع ، ويخطب فى تكريم البطولة ، وتمجيد الاستشهاد !

إلى السارق ...

فى قرية من قرى الريف البعيد ، على حجر عريض ، بالقرب من أحد المخازن المهجورة . جلس الفتى « عبد السميع » يحد نظره إلى الطريق الزراعى الممهود ، ذلك الطريق الذى يخترق أراضى « حسن أغا » وما وراءها من المزارع ، تصطف على حافتيه أشجار فارعة معتدلة ، كأنها أحراس أيقاظ تتولى خفارة هذه البقعة المترامية الأطراف .

وكان الفتى يبعث فيما أمامه نظرات حائرة قلقة ، تجوز فى تشوّف وارتقاب بمن يعبرون السبيل . فهنالك صبية يتواثبون خلف الدواب فى مرح واستخفاف . وأولئك رجال يلقون على أكتافهم الفئوس ، فى وجوههم سيماء الركون إلى محتوم المصاير ومكتوب المقادير . وهؤلاء نسوة تخب فى أكسية سابغة قاتمة ، وقد انبسطت قاماتهن ، واشرأبت هاماتهن ، ومضين فى لباقة ودربة ، يحملن على رءوسهن قفاف الزاد .

وتطلق محيا الفتى بغتة ، وافتر ثغره عن ابتسامة بدت بها

أسنانه مرصصة لامعة ، فنهض عن الحجر ، وافى العود، عريض الأكتاف ، وسيم الملامح ، ينتفش فى صدره العارى شعر غزير ، وينحسر جلبابه عن ساقين ضخمتين كأنهما قدّتا من جذوع النخيل !

وما هى إلا أن صاح الفتى منادياً فى تكرار :

« صابحة» . . . يا « صابحة » . . . يا بنت يا « صابحة » .

وكانت « صابحة » قد أخذت بمقود حمار على جانبيه غرارتان فارغتان . . . فما إن سمعت النداء حتى استدارت نحو مبعثه ، فألفت « عبد السميع » مهرولا إليها ، فاستشعرت نفسها ابتهاجاً كاد يتجلى على قسمات وجهها ، فأمالت خمارها الأسود على فمها ، تستر ابتسامها . ولم تلبث أن داعبت ظهر الحمار بضربات من عصاها ، فهم الحيوان مغزاها ، فانفتل يقمص عائداً إلى الدار .

وبلغ الفتى مكان الفتاة وهى تعانى أن تكتم ما بها من اهتياج ، ولا تجد من وسيلة لذلك إلا أن تشد خمارها على جانب وجهها طوراً بعد طور ، ومضى الفتى بفتاته إلى المخزن المهجور ، ووقفا ببابه فى صمت وقلق .

وما هى إلا أن أطرق « عبد السميع » ، وطال به الإطراق ، وهو يحدّق فى أديم الأرض ، ثم همهم يقول :

لم تحضرى للعمل منذ أيام يا « صابحة » !

فتراخت يد الفتاة عن خمارها ، تنفض الغبار عن جلبابها ، فانبلج محياها تتنضر فيه زهرة الشباب . ورفع الفتى إليها بصره يتملىّ مفاتنها ، فأسرعت الفتاة إلى خمارها تسبله ، وفى عينيها حيرة وتحرّج .

أنس « عبد السميع » إلى « صابحة » منذ وصل بينهما العمل فى دار « حسن أغا » إذ كان الخادم الخاص لرب الدار ، يضع فيه ثقته ، ويستودعه سره ، فهو الأمين على متاعه وماله ، وهو الحريص على أداء واجبه فى نزاهة واستقامة وإخلاص .

وكانت « صابحة » تتردد على دار « حسن أغا » كلما استدعت بعض الأعمال استخدام صبايا القرية حيناً بعد حين .

ونبتت بين الفتى والفتاة مودة وألفة ، فشاع فى القرية ما بينهما ، حتى إنهما كانا إذا تراءيا معا تهامس الناس يقولون :

هنيئاً للحبيبين !

وتناهى إلى والد « صابحة » ما بين ابنته وبين الفتى

« عبد السميع » من محبة وهيام ، فلم يقع ذلك منه موقع الرضا ، وكيف يروقه ذلك وابنته مهوى فؤاد « شيخ البلد » نفسه ، والأمل وثيق فى أن يتم بينهما زواج .

وحدث ذات يوم أن توخى الفتى منزل والد « صابحة » يطلب يد ابنته ، فثار عليه الرجل ، وعنف به ، وأنكر منه أن يجرؤ على خطبة فتاته . . .

فأراد « عبد السميع » أن يؤيد طلبته ، ويعزّز خطبته ، فانبرى يكشف لوالد « صابحة » عما يعتلج فى نفسه من مشاعر الود وعواطف الحب ، فما هى إلا أن عصفت بالرجل عاصفة الغضب ، فاندفع يقول للفتى :

أنت تهين شرفى بما تقول . . . أتدرى من تطلب يدها ؟ أقادر أنت على أن تمهرها ؟ اغرب عن وجهى ، وإياك أن تتعرض للفتاة ، إياك أن توقعها فى حبائلك ، وإلا ساءت العقبى .

فخرج الفتى خزيان محسور القلب ، ولكن ذلك لم يفتّ فى عضده ، ولم يفقده الرجاء . . . فعوّل على أن يعمل على إرضاء والد « صابحة » ، كلفه ذلك ما كلفه من جهد وعنت !

تواصل صمت « صابحة » وهى ماثلة قبالة فتاها يتملاها

ولا يملّ ، وفى نظراتها يستبين ما طبعت عليه نفسها من طهارة وصفاء ، وما يعمر جوانحها من طيبة و إيمان .

وكأنما ذكر الفتى سؤاله لفتاته منذ فترة : لماذا تخلفت عن العمل منذ أيام ؟

فاستأنف يقول :

أكانت غيبتك لمرض يا « صابحة » ؟

فنكست رأسها ، وهى تجيب :

لم أكن مريضة !

ـ ما سرّ غيبتك إذن . . . ؟

فازدادت الفتاة من إطراق ، وجعلت تفرك يديها ، ولا تجيب ، فقال لها الفتى :

ومتى تعودين للعمل ؟

فهمهمت تقول :

لن أعود !

فعرت الفتى دهشة ، وتعجل قائلا :

كيف لا تعودين ؟

فهمت الفتاة أن تجيب ، ولكن الكلمات كانت تحتبس

بين شدقيها ، وأخيراً رفعت إليه رأسها تقول :

ذلك ما أراده أبى !

— ماذا جرى ؟

فشرعت الفتاة تدير على وجهها طرف خمارها ، وهى تقول :

لقد ساء أبى أن تكون بينى وبينك صلة !

فاهتاج الفتى صائحاً :

أيريد أبوك أن يفرق بيننا ؟

فقالت فى استسلام :

ذلك ما يريد .

— وما رأيك أنت ؟

— ماذا فى مكنتى أن أصنع ؟

فتوقدت عين الفتى ، وقال مضطرب الأنفاس :

لا يستطيع أبوك أن يفرق بيننا . . .

فاندفعت الفتاة تقول :

إن هى إلا أيام . . .

فصاح الفتى :

ثم ماذا يكون ؟

فلم تجب الفتاة ، فأتبع الفتى قوله مغيظاً :

لماذا لا تتمين قولك ؟ لماذا لا تصارحينني بأنك أصبحت مخطوبة « لشيخ البلد » ؟ . . . ولكن أقسم لك بالله العظيم ثلاثاً إن هذا الزواج . . .

وهنا اختنق صوته ، ونفرت أوداجه ، واضطربت كلماته ، وهو يقول :

أقسم لك بكل يمين إن زواجك هذا لن يتم . . . لن تكوني لغيري ما دمت حياً !

ورانت على وجهه جهامة وقطوب ، واكتست قسماته طابع الشراسة والعنف ، فعاجل الفتاة توجس وحذر ، وزوت بصرها في رقبة وجزع ، وراحت تسائل نفسها : ما لها ترى فتاها على حال لم تعهده من قبل ؟ ما لها ترى سحنته قد انقلبت سحنة نمر مفترس ؟ أهذا « عبد السميع » الوادع الطيع الذي لم ينشب بينه وبين أحد يوماً شجار ؟

ولبث الفتى على حاله هنيهة مكروب الأنفاس ، يبعث من عينيه نظرات شيطان . . . فأقبلت عليه الفتاة تسكن من

روعه ، وتهدئ من ثائرته ، وهى تقول :

روّق دمك يا « عبد السميع ». . . وخل عنك الطيش والنزق !

فاستلان الفتى يقول :

ماذا تريدين منى أن أفعل ؟

— ليس لنا إلا أن نتذرع بالتؤدة والصبر .

— إلى متى نصبر ؟ أننتظر حتى يخرج الأمر من يدنا ؟ أنسكت حتى يتم كل شىء ؟

فأشرعت الفتاة حدقتيها إلى السماء ، كأنها تخصها بقولها :

الأمر كله بيد الله . . . وإنا لمشيئته خاضعون !

فهمهم « عبد السميع » ساهم النظرات يقول :

لم يبق لى فى قلبك حب يا « صابحة » . . . ليس هذا شأن المحبين !

فصمتت الفتاة برهة ، ثم انخرطت فى البكاء دفعة ، فاضطرب الفتى فى وقفته ، ومال عليها يأخذ بيدها إلى داخل المخزن المهجور ، وأجلسها هنالك على كومة من الهشيم ، وطفق يمسح دمعها ، ويقول لها فى تلهف وتوجع :

لا تبكى يا « صابحة » . . . فإن بكاءك يذيب قلبى . . . إنى على ثقة بحبك إياى . . . ولكن هذه الخطبة وقعت من نفسى كأنها طعنة خنجر . . . لن أدخر وسعاً فى سبيل فسخ هذه الخطبة . . . سأعود إلى أبيك أخطبك إليه ، وما أحسبه هذه المرة يردنى كما فعل من قبل . . . ليوافقنّ . . . ليوافقن . . .

فحدقت إليه « صابحة » وعيناها مخضلتان ، وسألته :

كيف يوافق أبى على خطبتك إياى ؟ كيف تفسخ خطبة « شيخ البلد » ؟

فهم « عبد السميع » أن يتكلم ، ولكن شرق بريقه ، فلم ينبس ، وظلت الكلمات تتقاتل بين شدقيه ، وعيناه تبصّان ، وأخيراً أفلتت منه هذه الجملة :

ليوافقن أبوك على أن أخطبك لى . . . الوسيلة هذه المرة حاضرة . . .

ـــ أية وسيلة ؟

فجعلت حدقتاه تدوران فى محجريهما ، لا يقر لهما قرار . . .

وبعد قليل مدّ يده إلى كتف الفتاة يهزها ويقول :

عندى المهر . . . عندى المهر !

فرفعت الفتاة يدها إلى عينها وأنفها ، تمسحهما بكمها .
وتألقت على وجهها ابتسامة ، وحملقت تقول :

أعندك المهر ؟ . . . أعندك ثلاثون جنيهاً ؟

— عندى . . . عندى !

— معك ؟

— معى . . . فى جيبى . . . أتريدين أن تريها ؟

ثم دس يده فى جيبه ، وأخرجها تحمل رزمة من ورق النقد ، ومضى يقلبها أمامها مهتاج الأوصال ، وهو يعدّ بصوت مسموع :

خمسة . . . عشرة . . . خمسة عشر . . .

فلما بلغ الثلاثين سما إلى الفتاة ببصره يقول :

هذا مالك يا « صابحة » . . . هذا مهرك الذى سأقدمه غداً إلى أبيك . . . تأمليه . . . خذى هذه الأوراق فقلبيها بين يديك ، إنها لك وحدك !

وألح عليها فى أن تأخذ ورق النقد ، بيد أن « صابحة » أبت أن تمد إليه يمينها ، إذ كانت شاردة الفكر ، تسأل :

من أين لك هذا المال يا « عبد السميع » ؟ . . .

فعقد الفتى ما بين عينيه ، وأجابها :

ليس لك أن تعلمى . . . حسبك أن مهرك حاضر !

وتكلمت « صابحة » كأنها تناجى نفسها بقولها :

ليست لك دابة فأقول إنك بعتها ورجعت بثمنها !

ثم سكتت لحظة تحدق إليه وتقول :

وليس لك أقارب فأقول إنهم أقرضوك أو أعانوك !

فقال « عبد السميع » ثائراً :

لم أستدن من أحد قريب أو غير قريب !

فاستكملت الفتاة قولها :

أما سيدك الشحيح « حسن أغا » فهيهات أن يجود لك بشىء . . . أنّى لك هذه الجنيهات الثلاثون ؟ اصدقنى !

فاغتم الفتى لهذه المحاصرة التى تديرها حوله الفتاة ، وقال فى شدة واحتداد :

لا شأن لك بشىء من هذا كله . . . لست مسئولة !

فقالت فى اهتمام :

أريد أن أعلم مصدر هذا المال . . .

فصاح يقول :

لقد هبط علىّ من السماء . . . فلا تسألينى من أين ؟

فواجهته الفتاة بنظرات استشفاف تتوقد فطنة وفراسة ، وهو يحاول أن يزيغ عنها بصره ، كأنه يحذر أن تقرأ ما ستر من أمره . . .

ولبثت الفتاة وقتاً وهى تتكشف وتتعرف ، ثم ضربت صدرها بيدها وهى تقول :

أخشى أن يكون هذا المال مال « حسن أغا » . . . وأنك مددت إليه يدك !

فصرخ « عبد السميع » مرتبكا يقول :

ما هذا الكلام الفارغ ؟ قلت لا شأن لك بشىء من هذا كله . . . أنت تقحمين نفسك فيما لا يعنيك !

— الأمر واضح يا «عبد السميع» . . . ليس المال مالك ، فردّه مكانه ، واستعذ بالله من الشيطان !

— إنه لى ، أتصرف فيه كما أشاء . . .

— بل إنه ليس لك . . . فلا تكابر !

— أتريدين أن تضيع الفرصة ، وأن تتعذّر علىّ الخطبة ، فيتم « لشيخ البلد » أن يفعل ما يريد ؟

— لا يكون مهرى من مال حرام !

فهاج الفتى قائلا :

ما هذا الهراء ؟ سأدفع بهذا المال إلى أبيك وأنا أخطبك إليه . . . وستكونين لى على الرغم من كل شىء !

فأقبلت عليه « صابحة » تلاطفه ، وتقول معسولة الحديث :

لا يسؤك قولى يا « عبد السميع » . . . إنى أحبك ، وأحب الخير لك ، وهذا المال الحرام لا بركة فيه ، ولا نفع منه . . . وإن زواجاً يتم به لا يرضى الله عنه !

وتساقطت العبرات على وجنتى « صابحة » وهى تتضرع إلى فتاها قائلة :

عدنى أن تعيد المال إلى صاحبه !

— لن أعيده إليه . . . لقد أصبح فى حوزتى . . . لا يستطيع أحد أن يسترده منى !

فشرقت الفتاة بدمعها ، وصاحت مخنوقة الصوت :

لا يكون مهرى مالا مسروقاً . . . لا أقبل . . . لا أقبل أبداً !

فمال عليها يكلمها مشبوب الفؤاد :

وأنا لا أطيق التخلى عنك يا « صابحة » . . . محال أن تكونى

لغيرى زوجاً !

والتصق بها يصعّد أنفاسه المتوقدة ، وهو يقول راعش الصوت :

من أجلك يا « صابحة » سرقت هذا المال . . . سرقته من خزانة « حسن أغا » سيدى وولىّ نعمتى . . . ولكنها سرقة يعلم الله أنها عادلة . . . إنى فقير معدم ، لا حول لى ولا طول ، وقد ابتلانى الله « بشيخ البلد » ينافسنى فيك بجاهه وثرائه . . . فبأى سلاح ترينى أحاربه ، وأنا كما تعهدين ؟ لقد سرقت ، ولست أبالى أن أسرق ، إذا كان ذلك سبيلا إلى أن نحيا معاً حياة الهناءة والنعيم . . . لقد قتلنى نبأ خطبتك « لشيخ البلد » ، فقطعت ليلى جالساً القرفصاء ، جاحظ العينين ، وبغتة خطر لى أن أفعل ما فعلت . . . أن آخذ هذا المال . لا أدرى كيف ساقتنى قدماى ، فمددت إليه يدىّ . . . وما أكثر ما وجدت فى الخزانة من مال ، ولكنى لم أصب منه إلا مهرك المنشود . . . قليل من كثير ، وقطرة من بحر . . . ويشهد الله أنى أنوى ردّ المال الذى أخذته حين يتيسر لى فى قابل أيامى أن أرده شيئاً بعد شيء . . . ذمتى لا تقبل مال أحد . . . حدّ الله بينى وبين مال الناس !

وكانت « صابحة » ما برحت تنشج مكتئبة النفس ، وشعرت بأنفاس فتاها تسبح على وجهها ، وبفمه يلامس وجنتها ، وهو يدس ورق النقد فى كفها ، ويقول لها فى صوت أبحّ كأنه فحيح الأفاعى :

أحبك يا « صابحة » . . . لا عيش لى إلا بك يا « صابحة » . . . أنت روحى . . . أنت نور عينى ! . . . ذلك هو مالك فخذيه ، وتصرفى كما تشائين فيه . . .

وطفق « عبد السميع » يلتهم من خدّ الفتاة قبلات تلو قبلات ، فكانت « صابحة » تشعر بهذه القبلات كأنها لسعات عقرب . . . كما أحست يدها لذع النار حين لمست ورق النقد . . . فإذا هى تدفع فتاها عنها ، وتنأى بنفسها عنه ، وهى تقول :

دعنى يا « عبد السميع » . . . دعنى !

ووقعت عينها عليه ، فأنكرت ما ترى من سحنة راعبة تتمثل فيها نزعات الشر والأذى والافتراس . . . ولكأن هذا الوجه صفحة من الدم قد علتها غبرة قاتمة . . . فما لبثت « صابحة » أن استشعرت مسّ الخوف يسرى فى حناياها . . . فظلت

تتناءى عن الفتى ، وهى تتوسل إليه أن يدعها وشأنها ، ولكن « عبد السميع » لم يكن يفهم مما تريد شيئاً ، وأخذ يقبل عليها فى تلك الهيئة الشنعاء ، فلمح وجهها تتقلص قسماته ، وشفتيها تتأهبان لإطلاق صرخة . . .

فما أسرع أن قفز إليها يحصرها بين ذراعيه، ويحتضنها بشدة ، وهو يرغو ويهدر . . .

ونشبت بين الفتى والفتاة معركة كانت الغلبة فيها له . . . فانبعثت « صابحة » تطلق الصيحة بعد الصيحة ، ولكن « عبد السميع » أطبق على فمها بيده الغليظة ، يرد صراخها إلى حلقها مقهوراً مهزوماً . . .

على أن الفتاة استطاعت أن تزحزح يده شيئاً عن فمها ، وهى تقول :

اتركنى . . . لا أقبلك . . . اذهب عنى . . . إنى أكرهك !

فأجابها الفتى بصوته الأجش الموحش :

لن تكونى زوجاً لغيرى . . . أنت تحبيننى وأنا أحبك !

— بل أنا أكرهك . . . أكرهك !

فضغطها الفتى ضغطة عنيفة ، فندت عنها صرخة عالية

مفزعة ، تجاوبت بها أرجاء المخزن ، فاضطرب « عبد السميع » في موقفه ، وخيل إليه أن الناس موشكون أن يحدقوا به ، وأن الفتاة مفلتة من يده ، صائرة إلى سواه . . . إلى « شيخ البلد » غريمه !

وأحس الرجفة تهزّ كيانه ، وكأن غمامة تنبسط على عينيه . وإذا بيديه تحوطان الفتاة فتضغطان عنقها ، وتكتمان أنفاسها ... على حين كان فمه يجمجم هذه الكلمات كأنها خوار ثور محتبس:

لن تتزوجي « شيخ البلد »! ... لن تكوني لأحد دوني !... أنت لي وحدي !

وتداعت قوى الفتاة ، فتراخت عنها يدا « عبد السميع » فإذا هي تتهاوى على كومة الهشيم . . .

ومكث الفتى يحدق إليها لحظات ، وأخذ يستعيد وعيه ، ويثيب إليه رشده ، فركع بجوار فتاته يهزها ، وهو يهيب بها قائلا :

انهضي . . . انهضي !

واندفع يلكزها بقوة ، وقد علا صوته في رعشة يقول :

ما لك لا تجيبين ؟ . . . انهضي !

وأخذ بكتفها ينهض بها ، فألفى رأسها يميل على صدرها ، وإذا بجسدها يسقط من بين يديه ، لا حراك به .

فسدّد الفتى نظره إليها فى لوعة وفزع ، وهو يرتد عنها خطوات ، وما عتّم أن صاح :

كلا . . . لم أفعل شيئاً !

ثم انكفأ على التراب يمرّغ وجهه فيه ، وينبش الأرض بأظفاره ، وهو يئن ويتوجع .

وكان « حسن أغا » آنئذ يجوز بتلك البقعة يتطلع ، وقد أكب على سبحته يتمتم ، وهو يجر قدميه فى خفيه الباليين ، تكسوه جبته الناصلة التى تكاثرت فى جوانبها الرقاع ، وعلى رأسه طربوشه الأزعر يتراخى على أذنيه .

وبينا هو سائر إذ تراقى إلى سمعه أنين ، فدنا من المخزن يتبين ، فرأى « عبد السميع » على حاله يتقلب ، فهرع إليه يقول :

ماذا بلك يا « عبد السميع » ؟

فسما إليه الفتى برأسه ، ووجهه مغبر ، وعيناه تغشاهما العبرات ، وقد بسط يده برزمة ورق النقد ، وهو يقول فى

حشرجة المحتضر :

دونك مالك . . . حدّ الله بيني وبينه !

فسرعان ما لقف « حسن أغا » رزمة الورق ، وهو يتفحصها ويسأل :

ألم تمدّ يدك إلى سواها ؟

فصاح به الفتى مختنقاً :

ابعد عني . . . دعني !

وفي هذه اللحظة ، لمح « حسن أغا » جثة الفتاة على الهشيم ملقاة ، فتدانى منها مذعوراً يستكشف ويتعرف ، فما إن تجلت له حقيقة أمرها ، حتى اضطرب في وقفته ، وارتد إلى الوراء راكضاً يصيح :

إلى السارق ... إلى السارق ... إلى القاتل ... إلى القاتل !

فاته القطار . . . !

بلدة « المحاسنة » قرية من تلك القرى القابعة فى صميم الريف ، لا يميزها إلا شيئان : تلك المحطة العجوز الشوهاء التى يقف عليها خلال اليوم قليل من قطارات الركاب فى ذهاب وإياب ، وذلك المكتب الذى يحمل على جبينه لوحاً شاحباً ترياً ، تقرأ عليه ما تبقى من حروف كلمة « بريد » .

فى هذا المكتب يتربع « العنترى أفندى » يصرّف الأمور ، وهو رجل تكاملت له الأربعون ، ظل يعمل فى مكاتب البريد منذ التحق بخدمة الحكومة ، وما زال يتنقل من صقع إلى صقع حتى اطمأن به المقام وكيلا لمكتب بلدة « المحاسنة » ، فلبث بها قرابة خمسة أعوام لا يصافح وجهه بلداً سواها .

وكان « العنترى أفندى » يقضى فى هذا المكتب أكثر يومه ، جالساً على كرسيه ، مقبلا على كومات الرسائل يطبعها بخاتمه ، ويقذف بها ذات اليمين وذات الشمال ، وهو مهتاج الخاطر ، مقطب الجبين ، فلا يكاد يلمح غلامه

الذى يدعوه « بالمراسلة » حتّى يصب عليه جام غضبه ، آخذاً عليه صنوفاً من التقصير والإهمال ، ناقماً على تلك الساعة التى رمته بهذه البلدة الحقيرة المغمورة ، لاعناً أولئك الأهلين الأجلاف الذين يسببون له ما لا يطاق من المضايقات ، فإن سئم لسانه تكرار الشتم والسباب لغلامه ولأهل القرية عاد باللائمة على نفسه المتطامنة الكسول ، تلك التى رضيت بالخنوع والاستسلام .

وبعد فترة تمتد يد « العنترى أفندى » إلى درج مكتبه ، ينبش فيه ، فإذا هو يستخرج إضمامة فى جانب من الدرج ، وما هى إلا أن يبسطها بين يديه ، ويتوسم ما ضمت من صور الغانيات وكواكب المسرح والسينما ، تلك الصور التى كان يحرص على انتزاعها من الصحف والمجلات ، ويعنى بحفظها فى هذه الإضمامة ليتملاها حيناً بعد حين . فإذا قضى « العنترى أفندى » وطره من التوسم والتملى ، وأرضى نزعة الشغف بين جنبيه ، شاعت على أساريره سارية من الطلاقة والارتياح .

وينتهى « العنترى أفندى » من عمله ، ويغلق باب مكتبه ، فيبرز إلى الطريق متهالكاً فى سترته الصفراء الكاسفة ذات

الأزرار النحاسية الصدئة ، وهو يجر رجليه فى نعلهما البالية العفراء ، حتى إذا بلغ قهوة « مانولى » اقتحمها فى غطرسة وتأمّر ، ولا يلبث أن يقتعد كرسيه المختار فى صدر المشرب ، وما هى إلا أن يوافيه « مانولى » بقدح القهوة وبالجوزة متوهجة عليها النار ، فينقل فمه بين القدح يترشف منه ، والجوزة يجتذب أنفاسها ، وعينه مشرعة إلى الطريق تروح عليه مواكب السابلة وقطعان الدواب مثيرة حولها سحائب الغبار .

ولا تكاد الجوزة تلفظ على شفتى الرجل آخر أنفاسها ، حتى يقوم من مكانه آخذاً سبيله إلى « جسر الترعة » يذرعه ، متلهياً بمرأى نساء القرية وهن يردن الماء ليملأن الجرار ، ويصدرن عن الترعة آيبات إلى الأكواخ . . . وكثيراً ما قام بنفسه أن يتدانى منهن ، وأن يبادئهن بالحديث والمداعبة ، ولكنه كان فى كل مرة لا يكاد يهم بذلك حتى يحجم هيّاباً ، ويرتد خجولا ، وهو يصعد من صدره زفرات اللوعة والتحسر !

ولا يفوت « العنترى أفندى » أن يلزم مكانه من الجسر ، حتى يجوز « القطار السريع » أمام عينيه ، يهز الأرض بسطوته

ويملأ الفضاء بزئيره ، فيثير فى نفس الرجل نشطة وحيوية ، ويحمل إليه نفحة من عالم اليقظة والنور .

ويختم « العترى أفندى » طوفته بالتعريج على حانوت « عم ربيع » الذى لا تدرى أى شىء هو مختص بالاتجار فيه ، فلك أن تقول إنه حانوت لا يحوى من شىء ، ولك أن تقول إنه حانوت يتوافر فيه كل شىء !

فى هذا الحانوت يستطيع « عم ربيع » أن يسد جوعة « العترى أفندى » حين يحل به طالباً الطعام ، فيجهز له ما تيسر ، ويبسط له من طوارئ الأخبار ومن الطرف والنوادر ما فيه متعة وسلوى .

و « العترى أفندى » يعرف فضل يومى « الجمعة » و « الأربعاء » على سائر أيام الأسبوع ، فهو يظفر فى هذين اليومين بألوان من الحياة يستروح فيها بعض الترفيه والمتاع .

فى يوم « الجمعة » يحرص على أداء الفريضة فى زاوية البلدة ، لا يعنيه إلا أن يتفرج بمنظر الوافدين عليها للصلاة ، وهم متزاحمون على حوض الماء يتوضأون ، مستمعاً إلى ما يخوضون فيه من أشتات الأحاديث .

وهو فى يوم « الأربعاء » يحرص على أن يشهد « سوق الأسبوع » لا ليشترى أو ليبيع ، ولكنه مع ذلك لم يكن يدع شيئاً مما يعرض فى السوق إلا ساوم فيه ، وإنه ليغلو فى مماكسته للباعة ، حتى ينتهى أمره معهم إلى مشاجرة وعراك ، فإذا به يتوسط الحلقة منتفخ الأوداج ، يلوح بيديه، ويرفع من صوته، منددا بأولئك الباعة الذين خربت فيهم الذمم ، واستبد بهم الشره ، فراحوا يتكالبون على كسب حرام . . .

فإذا فصل عن السوق ، مضت به إلى البيت أتان عجفاء ، وقدماه متدليتان تشقان على أديم الأرض خطين واضحين يباريان ما تركته حوافر الأتان من آثار . . .

وتذهب به الأفكار فى مسيره كل مذهب ، فتراه ينحى على شعرات لحيته التى لم تمسها الموسى منذ أيام ، مقتلعاً إياها من منابتها ، دون وعى . وفى الفينة بعد الفينة يتصيد ما تشعث من شاربه ، فيقرضه بأسنانه فى غير إشفاق .

ولم يكن فى القرية أحد يراه « العنترى أفندى » كفئاً لصداقته ، فعاش الرجل فرداً لا يأنس إلى جليس ، طابعه التجهم والعبوس . حتى إن « ناظر المحطة » على رفعة مقامه

وعلو سنه لم يكن يحظى منه بألفة وإيناس ، فهو — فيما يراه « العنترى أفندى » — رجل خامل الروح ، تافه الشخصية ، بغيض . . . على أن ذلك كان دأبه فى معاملة كل من تعاقبوا على نظارة المحطة خلال إقامته فى البلدة خمس سنين !

ويوماً هبط المحطة ناظر لها جديد ، فكان لا بد أن يخف إليه « وكيل البريد » يستقبله ويهنئه ، فلم يجد فيه شيئاً يجتذب هواه ، بل راعه منه ما يخشاه ، إذ كان الناظر الجديد هائل الجرم ، مقطب الجبين . . . له عين براقة كعين الصقر ، وله شارب غزير متمرد الأطراف !

وتواردت أيام ، واستطار فى البلدة أن الناظر الجديد له زوجة سودانية هى آية فى الملاحة والحسن ، وأنها فى زهرة العمر ، رشيقة القدّ ، ذات دل وظرف ، لها فن المتحضرات فى حسن التزين ، ولها ذوقهن فى وسائل العيش .

وكانت أنباء هذه المرأة تتزاحم على سمع « العنترى أفندى » يوماً بعد يوم ، تتجلى فيها خلابة الوصف وروعة التصوير ، فجعل يرهف السمع لهذه الأنباء شيئاً بعد شىء ، بل إنه حرص على أن يتلقّطها من كل سبيل . . .

وعجب الرجل من أمره بعد ذلك ، كيف إذا استرخى على مقعده ، تمثلت له زوج « خميس أفندى » ناظر المحطة طيفاً رفافاً يبعث فى قرارة نفسه نشوة الأحلام .

وبينما يكون « وكيل البريد » فى غمرة من عمله ، منكفئاً على الرسائل ينهال عليها بالخاتم المعهود، وعن كثب منه ركام اللفائف يتناولها فيقذف بها هنا وهنالك ، وقد وقف تجاهه غلامه الذى يدعوه « بالمراسلة » يتلقى أوامره بلا حساب — إذ به يقبل على الغلام بغتة يسأله :

ألم يقع بصرك على زوجة « ناظر المحطة » يا ولد ؟

فيفغر الغلام فاه فى ابتسامة بلهاء ، وهو يقول :

لم أرها قط يا أفندى !

فيحدجه الوكيل بنظرة إصغار ، ويغمغم قائلا :

ماذا تعمل إذن فى هذه البلدة يا غبى ؟

وألفى « العنترى أفندى » نفسه على توالى الأيام متودداً إلى « خميس أفندى » ناظر المحطة الجديد ، راغباً فى أن تتوثق بينهما أواصر الإخاء ، فقد استبان له أنه كان مخطئاً فى الإعراض عن ذلك الرجل ، مسيئاً فهم شخصيته الجديرة

بالتكريم والإكبار ، ومن ثم أصبح الآن يختلف إلى المحطة ، بعد أن كانت قدمه لا تطؤها إلا فى الندرة . وحين يقف « قطار الركاب » على رصيف « محطة المحاسنة » ، ويهل الناظر من حجرته متخطراً كالضرغام الركين ، يتراءى فى ظله « العنترى أفندى » ، وهو يكثر من التطلع إليه ، ولا يفتأ يفرك يديه ، وعلى فمه تنطبع ابتسامة التودد والزلفى . . .

ونمى إلى « العنترى أفندى » أن زوجة « ناظر المحطة » قد ألفت أن تخرج فى الفترات أصيلا إلى دار العمدة تزور زوجه ،وأنها تجوز فى طريقها إلى الدار بحانوت «عم ربيع»... فلم يكد « العنترى أفندى » يعرف ذلك حتى أدخل على برنامجه اليومى تعديلا جديداً لم يكن له به عهد .

ما إن يرفع « شيخ الزاوية » صوته بأذان « العصر » حتى يتراءى « العنترى أفندى » مغادراً بيته ، حليق اللحية ، نظيف الملبس ، يلتمع حذاؤه ، وهو يسير متبختراً يتفقد هندامه ، ومن ورائه غلامه يتبعه حاملا كرسياً ذا مسندين ، ووجهتهما معاً حانوت « عم ربيع » فيقتعد الرجل كرسيه واضعاً ساقاً على ساق، وفى عينيه بريق الترقب ، وعلى وجهه إشراقة الأمل . . .

وقد ينقضى الأصيل ، وتغرب معه الشمس ، وقد ذهب الترقب سدى ، وضاع الأمل هباء ، وحرمت عين « العنترى أفندى » أن تقر بمرأى الغادة السودانية المنشودة ، فينهض الرجل فى غبشة الليل ، راجعاً إلى بيته ، محنى الهامة ، يقرض بأسنانه ما تشعث من شاربه ، وقد غشيه سهوم . . .

على أن الشمس كانت تطلع على « العنترى أفندى » فى صبيحة غده ، تجدّد من ترقبه ، وتحيي من أمله ، فلا تكاد الزاوية تعلن أذان العصر حتّى يأخذ سبيله إلى حانوت « عم ربيع » ، وخلفه غلامه يحمل له الكرسىّ العتيد !

وذات أصيل ، بينما كان « العنترى أفندى » متسنما كرسيه ، على باب الحانوت ، إذ أحس برعشة تسرى فى أوصاله ، وارتباك يسود حركاته ونظراته . . . لقد مرت به الحسناء السودانية ، فعلقت بها عينه منذ لاحت من بعيد ، حتّى طوتّها معاطف الطريق ، ولكنه على الرغم من ذلك طفق يسائل نفسه :

ماذا رأى منها ؟ وماذا استبان له من سماتّها وقسماتّها ؟

فلم يجد عند نفسه من جواب ، وقصارى أمره أنه مسحور

العين بما رأى ، وأنه عامر القلب من غبطة وانتشاء .

وهكذا أصبح « العنترى أفندى » يجرى فى حياته على نظام جديد ، فلم يعد يقصد إلى قهوة « مانولى » يقضى فيها ساعة الأصيل ، ولم يعد يذهب إلى « جسر الترعة » ليرقب حاملات الجرار من نساء القرية ، وأمسى « القطار السريع » يمر فى جلجلة ودوىّ ، دون أن يوليه الرجل نظرة أو يلقى له سمعاً . . . أما « سوق الأسبوع » فقد تخلف عنها « العنترى أفندى » فأراح واستراح ، وأما صلاة « الجمعة » فلم يعد يجتذبه منها ما كان يشهده فيها من قبل .

لقد صار « العنترى أفندى » على مر الأيام رسالة بريدية حية ترد إلى حانوت « عم ربيع » أصيل كل يوم بانتظام . . . وتسنّى « لوكيل البريد » بهذه المثابرة الموصولة أن يرى زوج « ناظر المحطة » غير مرة ، وأن يتملى فتنتها على مهل . وكان مما يهزّ نفسه نحوها شعوره القوىّ بأنها توليه لفتة من طرف خفى ، وعلى فمها تختال ابتسامة فتانة خلوب .

ولطالما بنى « العنترى أفندى » عزمه على أن يرد تحية المرأة بمثلها ، ولكن كانت تخذله إرادته ، ويقعد به جموده ، فلا يملك

لأوصاله تصريفاً .

ونبتت بين « العنترى أفندى » و « عم ربيع » مودة وائتلاف ، فهما يقضيان الوقت أمام الحانوت يخوضان فى شجون من الحديث ، وكان « عم ربيع » أذناً صاغية يجد فيها « العنترى أفندى » مجالا طيباً كريم الساحة، يودعه كل ما يجيش فى وجدانه من عواطف ومشاعر ونزعات .

وفى أكثر من مناسبة سمع « عم ربيع » جليسه « العنترى أفندى » يتحدث إليه فى خصائص السودانيات ، وما يتميزن به من طراوة أجسام ، واستواء قامات ، وما يتجلى فى نفوسهن من حيوية العاطفة وحرارة الشعور !

وكان « العنترى أفندى » وهو يتوخى هذا الحديث ، يبدو وهاج النظرات ، مشبوب الشغف ، قوىّ الحنين ، لا يمل الترداد والتكرار ولا يبالى علائم السأم التى تتوضح على وجه « عم ربيع » وهو يعانى مرارة الصبر والاحتمال .

وأحس غلام « المراسلة » بأن سيده « وكيل البريد » قد تبدلت حاله ، وأنه قد عراه انقلاب ، فهو يدخل المكتب ناشطاً ، بسام المحيا ، أنيق البزة ، ملتمع الحذاء ، يلقى على

غلامه تحية الصباح في وداعة وتلطف ، وهو لا يفنأ يجاذبه أطراف الحديث في غير تطاول عليه ، ولا أنفة منه . وإنه في شتى شئونه لهيّن لين لا عنف فيه ولا وعورة ، حتى إن الرسائل لم يفتها نصيبها من هذا الانقلاب ، فقد أصبحت الآن تتلقى وقع « خاتم البريد » من يده في رفق وهدوء !

وأكبر ما فرح به غلام « المراسلة » من آثار هذا الانقلاب أنه قد انزاح عن عاتقه ذلك العمل الذى كان يؤديه على كره ، وهو القيام بغسل ثياب سيده ، فقد اختار « العنترى أفندى » إحدى نساء القرية لتقوم بغسل ثيابه ، فكانت هذه أول امرأة تدخل بيته منذ هبط القرية .

وحدث ذات يوم أن دخل الغلام بيت سيده على حين غفلة ، فرأى ما هاله وأذهله . . . رأى هذه المرأة واقفة عن كثب من طشت الغسيل ، وهى في ثوبها الذى يكشف عن ذراعيها وساقيها ، وقد اعتنقها « العنترى أفندى » في وجد وتوقد وهيام . . . فارتد الغلام عن البيت متسللا يحاول أن يكتم اهتياجه . . .

وكثيراً ما كان سيده يدعوه في العشيّ ليأتنس به ، ويبدد

معه مكاره الوحدة ، فإذا طاب لهما السمر ، تطلع « العنترى أفندى » إلى السماء ، وجعل يترنم بأغنية لم يكن يمل تكرارها ، وهى :

القمر له ليالى . . . يطلع لا يبالى !

وكان يطلب إلى غلامه أن يردّد معه مقاطع الأغنية ، فيجيبه إلى ذلك فى طرب وابتهاج .

ويخرج الغلام بعد هدأة من ليل ، فيخلو « العنترى أفندى » بنفسه ، متخذاً له مجلساً بجوار النافذة ، مطلقاً لفكره عنان الخيال ، فإذا به يحوم بنظراته فى فضاء الطريق ، وقد شاعت فيه الحلكة ، وخيمت عليه الوحشة ، ولا يفتأ الرجل محدقاً حياله ، مرهف السمع ، مشبوب الهيام ، يؤمل أن يلوح لعينيه طيف من يحب ، مسترقاً إليه الخطا ، قاصداً أن يطرقه فى جنح الظلام !

وقد صب « العنترى أفندى » عبقريته ولباقته فى إظهار الولاء لناظر المحطة الجديد ، يتطوع له بالخدمة ، ويتحدث عنه بالخير فى كل مكان ، ويغلو فى الحفاوة به جهده ، بل لقد ألزم نفسه بأن يهدى إليه فى الفينة بعد الفينة طرائف من

خيرات الريف ، فلم يجد « ناظر المحطة » إزاء هذه المودة والتلطف إلا أن يدعو « وكيل البريد » إلى تناول الغداء معه فى بيته ، فتقبّل الرجل هذه الدعوة والدنيا لا تكاد تسع فرحته واغتباطه ، وقدم على بيت الناظر فى اليوم الموعود يتألق كالعروس واتخذ مجلسه مذهولا تستغرقه الأخيلة والأحلام . وقضى وقته مع مضيفه يستمع إلى حديثه الفياض . لقد لبث « خميس أفندى » يسرد ما قام به فى حياته من خطير الأعمال ، وما جدّد من نظم المحطات ، وما احتمل من جسيم التبعات . فكان « العنترى أفندى » يمجد عمله ، وهو يردد كلمته المألوفة :

الله . . . الله . . . عظيم . . . عظيم !

وفيما هو يصغى إلى جليسه ، كانت تتهادى إلى أذنه خفقات أقدام رقاق ، تصحبها وسوسة أساور ورنات خلاخل ، فينصرف إليها بسمعه كله ، وقد هزته نشوة ، وازداد قلبه من خفوق .

وتكررت دعوات الناظر الجديد لوكيل البريد ، واستفاض حديث الرجل فيما اضطلع به من خدمات لمصلحة السكة الحديدية ، خدمات لو كوفئ عليها حق المكافأة ، لكان

الآن على رأس المناصب ينعم بعليا الدرجات . فلا يملك « العنترى أفندى » إلا أن يعلو صوته بكلمته الخالدة :

الله . . . الله . . . عظيم . . . عظيم !

وهو فى وليجة نفسه مرهف الحس، دقيق الترقب، يتسمع لكل نأمة تجرى فى البيت ، حتى إنه لا تفوته الهمسات من وراء الحجرات . . .

وكانت فطنة « العنترى أفندى » تأبى عليه إلا أن يؤمن بأن كل مايجرى فى البيت من حركات وأصوات لم يكن إلا رموزاً وإشارات تبعث بها زوجة الناظر ، حاملة معها معانى التواصل والتودد والترحيب .

وفيما كان « العنترى أفندى » صبح يوم على مكتبه ، يدق الرسائل بخاتمه ، إذ دخل عليه رسول من قبل « ناظر المحطة » يبلغه أن حضرة الناظر سيهدى إليه ظهر اليوم لوناً طريفاً من الطعام يكون له غداء شهياً !

وعجل « العنترى أفندى » إلى بيته ينتظر الهدية المرموقة ، ويعدّ العدة لاستقبالها ، ورأسه تتناوح فيه الأخيلة والأطياف . وجاء رسول بيت الناظر يحمل إليه صينية تتوسطها صحفة من

« الويكة » الفاخرة ، ذلك المطعم الذى لا يجيد طهوه إلا الماهرات من بنات « السودان » . . . فشمر « العنترى أفندى » عن ساعد الجوع ، وقد التهبت شهيته ، وجاشت مشاعره ، وأقبل يلتهم الطعام ، وهو يتمثل فى خاطره تلك السودانية الحسناء ، متلطفة به ، ترنو إليه ، فى فتنة وإغراء ، وكأنها تقبل عليه تسأله :

كيف وجد مذاق طعامها الذى طهته له ، تخصه به ؟

ولم تخامر الرجل خلجة من شك فى أن أمر هذا الغداء لم يكن إلا من تدبير زوجة الناظر ، فهى التى تخيرت صنفه ، وهى التى اقترحت إهداءه ، وما زوجها حيال ذلك كله إلا « أداة تنفيذ » !

ولبث « العنترى أفندى » فى هذا الأفق الجديد من حياته فترة طيبة ، ينعم بالأنس والبهجة والأمانى العذاب .

وفى ضحوة يوم دخل غلام « المراسلة » على « وكيل البريد » مهتما يقول :

ألم تسمع الخبر يا أفندى ؟

— أى خبر يا ولد ؟

ــ نقل حضرة الناظر .

وبوغت « العنترى أفندى » فغص بريقه ، وبقى هنيهة لا يملك أن ينبس . ثم نهض دانيا من الغلام محملقاً فيه يقول :

نقل حضرة الناظر ؟ كيف ؟ !

وأخذ بكتف الغلام يهزه ، وهو يقول :

من أين علمت الخبر ؟

ــ من المحطة .

وأسرع الرجل يغادر مكتب البريد ، قاصداً المحطة ، مندفعاً إلى حجرة الناظر ، فما إن دخلها حتى واجه « خميس أفندى » بقوله :

أى خبر هذا الذى سمعته ؟

فابتسم له الناظر قائلا :

هذا ما كان . . . تلقيت أمراً بنقل عاجل . . . سأرحل فى الغداة !

فامتقع « العنترى أفندى » وارتعشت شفتاه ، دون كلام ... فلاطفه « خميس أفندى » بقوله :

إنى أعرف شعورك ، وأقدّر صداقتك . . . ولعل فراقنا لا يطول !

وخرج « العنترى أفندى » يدور رأسه ، ويزيغ بصره ، واتخذ سبيله إلى مكتب البريد ، فاستقبله الغلام ترتسم على فمه ابتسامة بلهاء ، وهو يقول :

ألم تجدنى صادقاً فيما أخبرتك به ؟

فحدجه الرجل بنظرة نكراء ، وهو يقول له :

أراك لا تنشط إلا لأخبار السوء يا غراب البين . . . أنفضت عن المكتب غباره اليوم ؟

ــ نفضته يا أفندى ؟

فمر الرجل بإصبعه على ظهر المكتب ، وهو يقول :

كذاب . . . كذاب . . . المكتب يعلوه الغبار !

وما هى إلا أن هجم على الغلام ، تارة يعرك أذنه ، وطوراً يلكزه ويركله ، حتى تركه بباب المكتب يتلوّى من الألم ، وينخرط فى البكاء .

وفى الظهيرة رئى « العنترى أفندى » سالكاً الطريق إلى حانوت « عم ربيع » وهو ساهم يقرض ما تشعث من شاربه ،

ووراءه غلامه يتبعه بالكرسىّ .

وأصاب الرجل غداءه أمام الحانوت لقيمات ، ولبث هنالك ينتظر ، متنقلا بكرسيه يمنة ويسرة ، وهو يوازن بين المواقع ، ليختار أكثرها ملاءمة للترصّد ، وأحسنها تمكيناً له من التملى وإنعام النظر . . .

وطال بالرجل الجلوس ، وشقى ساعات بالانتظار ، حتّى انسدل أمام عينيه ستار الحلكة ، فلم يدر أظلمة نفسه هى أم ظلمة الليل ؟ !

ونهض « العنترى أفندى » وقد خاب أمله فى أن تكتحل عينه بمرأى الغانية السودانية فى ليلة الرحيل . . .

وعاد إلى بيته منهوك القوى ، كسير الفؤاد ، يحاور نفسه :

ماذا أبطأ بها عن الخروج عصر اليوم ؟

أتراها أشفقت على نفسها وعليه من نظرات التناجى فى ساعة التوديع ؟

وعانى « العنترى أفندى » ليلة ليلاء ، ينبو وساده به ، ويشتد أرقه وقلقه ، حتّى انشق أمام عينيه عمود الصبح ، لم يذق فى ليله غمضاً . . .

وما هى إلا أن ألفى جسمه يتثاقل ، وأعصابه تخمد ، فلكه سبات عميق .

ولم يوقظه إلا طرق عنيف بالباب ، فإذا غلامه يخبره بأن الساعة قد جاوزت العاشرة ، وأن السائلين عن وكيل البريد كثير ، وأن المحطة تحفل بمن قدموا يودعون الناظر المنقول . فهبّ الرجل مذعوراً عجلان يسبّ غلامه ، ويصبّ على رأسه جام غضبه ، آخذاً إياه بأنه قصّر فى الحضور لإيقاظه فى البكور .

وما هى إلا هنيهة حتى كان « العنترى أفندى » يعدو إلى المحطة عـــدواً ، وهو يفتل شاربه ، وينقذ ما يمكن إنقاذه من زيه المهوّش . . . وأقبل على المحطة حائر النظرات ، سريع التلفت ، يدفع بمن يصادفه فى طريقه ، حتى ألفى الناظر يتوسط المحطة فى لمة من المودعين ، فهرع إليه ينحنى على يده ، وهو يقول :

داهمنى مرض كاد يحرمنى أن أحضر لتوديعك . . . ولكنى تحاملت على نفسى .

فربّت الناظر كتفه ، يشكر له عاطفته ، ويقدّر له

موفور وفائه ، على حين كان « العنترى أفندى » يحوّم بنظراته في أرجاء المحطة يتوسم ويتنسم ، لعله يعرف مكان درته الغالية ، ليتزود منها بالنظرة الأخيرة . . .

وجلجل القطار يتهادى إلى المحطة ، فازداد « العنترى أفندى » من ترصّد وتطلع ، وما إن وقف القطار حتى تخطر إليه « خميس أفندى » وهو يشدّ على أيدى مودّعيه ، فلم يملك « العنترى أفندى » إلا أن يقول للناظر فى لهفة وتشوّف :

والسيدة حرمكم ؟ . . . والسيدة حرمكم ؟ . . .

فأجابه الناظر ، وهو يصعد المركبة :

لقد سبقتنى بالسفر فى قطار الصبح .

فوجم الرجل فى وقفته ، وعراه ذهول ، ولم يشعر بنفسه إلا وقد غمره المودّعون متسابقين إلى تحية الناظر ، تحت نافذة القطار ، وهو على أهبة المسير .

وتحرك القطار فى تؤدة وأناة ، فأتبعه « العنترى أفندى » نظرات حسرة والتياع ، وجعل القطار يتزايل رويداً عن عينيه ، فيشعر بأن جانباً من حياته يتزايل معه ، جانباً كريماً كان أثمن كنز عنده ، وأعز شىء لديه .

وأصيلا دخل غلام « المراسلة » على « العنترى أفندى » يقدم له قدح القهوة ، فما إن ارتشف الرجل منه رشفة حتى قال للغلام عابساً :

ما هذه القهوة الكريهة ؟ إنها من بن ردىء !

فعجل الغلام بقوله :

هذا هو البن الذى أصنع لك منه القهوة كل يوم يا أفندى .

— كذاب . . . كذاب !

— والله العظيم .

فقاطعه الرجل صائحاً به ، وهو يقذف بالقدح فى وجهه :

اغرب عنى ، وإلا حطمت رأسك . . .

فأدبر الغلام هارباً .

وفى الصبيحة دخل الغلام على « العنترى أفندى » يخبره بمقدم المرأة القروية لتقوم بغسل ثيابه فى موعدها الأسبوعى ، فزجر الرجل قائلا :

وما صناعتك أنت إذن يا ولد ؟ . . . لا تدخل بيتى امرأة . . . اغرب عن وجهى !

وانسابت الأيام تذهب شيئاً بعد شىء بما كان يبدو

فيه « العنترى أفندى » من أناقة وحسن هندام ، وتغيض ما كان له من بشاشة ولطف وإيناس .

وأصبح الرجل يظهر فى سترته الصفراء الكاسفة ذات الأزرار النحاسية الصدئة ، متسكع الخطوات إلى قهوة « مانولى » يدخن الجوزة صامتاً ساهماً يخلط بأنفاسها زفراته الحرّى، ثم ينهض خاملا إلى « جسر الترعة » يرمق حاملات الجرار بنظرات فيها لهفة وتحسر ، حتى يمر به « القطار السريع » كالبرق الخاطف ، فيبارح مكانه وهو يقتلع شعرات لحيته التى لم تمسها الموسى منذ أيام ، وينحى على على ما تشعث من شاربه يقرضه بأسنانه ، وهو يجر قدميه فى نعله البالية العفراء . . .

وإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، ذهب إلى الزاوية يفرج عن نفسه بمرأى أهل القرية ، وهم يتزاحمون على حوض الماء يتوضأون ، مستمعاً إلى ما يخوضون فيه من أشتات الأحاديث .

وإذا حضر يوم الأربعاء قصد إلى سوق الأسبوع ممتطياً تلك الأتان العجفاء ، ويظل فى ممارسة ومكاس ،

لا يهدأ له حال إلا بعد تطاحن وعراك .

وإنه ليحرص فى بعض الأصائل على أن يعرج على حانوت « عم ربيع » ، يتصيد صاحب الحانوت ، ليفرغ فى أذنه ما يضيق به من سخط وتذمر وشكاة ، ناعياً على هذه الحيـــاة أن دأبها معاندة ذوى النفوس الطيبة ، وتكدير ما تنطوى عليه جوانحهم من صفاء ونقاء ، آخذاً على الأقدار أنها تفرق بين القلوب المتلاقية فى غير رحمة ولا مبالاة ، مستصغراً شأن هذه الدنيا التى يخطىء الناس فى الإغلاء بها ، وما هى إلا هباء فى هباء !

وبينما هو يحتدّ ، إذا ببصره قد تطلع إلى الطريق الذى كانت تجوز به السودانية الحسناء ، فيغشاه صمت ، وينعم نظره كأنه يتفقد ذلك الشبح الغارب ، مستعيداً ذكراه . . .

ولا يملك « العنترى أفندى » وهو على هذه الحال ، إلا أن يبعث من صدره تنهدة جياشة ، ملؤها الحسرة على حلم جميل كان وانقضى !

ست الكل . . .

كانت الشقة التى أسكنها فى شارع « درب الجماميز » تطل على حانوت « المعلم ياقوت » الحلاق ، وأنا يومئذ أجتاز مرحلة الدراسة فى كلية الطب .

وتوثقت بينى وبين صاحب الحانوت صداقة الجوار على طول الأيام ، فإذا مللت الدرس ، أو تهيأ لى وقت فراغ ، نزلت إليه أجالسه وأحاوره ، فيطرفنى بنوادره وتعقيباته على أحداث الحياة ، طلىّ الأسلوب ، فطرىّ الفكر . ومما حبب إلىّ مجلسه أنه كان لين العريكة ، وديع النفس ، يتنكب عن الشر ويجنح إلى القنوع .

أما « عنقود » صبىّ الحانوت ، فكان فى أوج فتوته ، فارع العود ، عريض المنكبين ، معجباً بنفسه ، شديد الخيلاء . . . إذا غاب معلمه عن الحانوت تراءى بالباب عابثاً بشاربه الطرير ، وهو يتعوج تارة ويرقّص حاجبيه تارة ، مبعثراً نظراته المتبجحة على من يعبرن الطريق ، ولسانه يرشقهن بالبذىء من ألفاظ التحرش والمغازلة .

ولم يكن « المعلم ياقوت» يجهل بعض أخلاق الفتى « عنقود» وطالما عزّره وثار عليه ، ولكنه كان سريع العفو عنه ، راجعاً إلى البر به ، ولا غرو ، فالفتى ربيبه ، كفله منذ الطفولة ، والطريق يكاد يلتقمه بين المشردين الذين لا أهل لهم ولا كنف !

وكنت في بعض الأحيـــان أنصح لهذا الفتى أن يلزم جانب الحياء ، وأن يكون مطيعاً لمعلمه . بيد أنه كان يستقبل نصحي بابتسامة استخفاف ، ويتمادى فيما هو فيه من غواية ، ولاحظت أنه يتحدث عن معلمه مستطيلا عليه ، متهكماً به ، كأنه لا يباليه . . . فآليت على نفسي ألا أعاود التحدث إليه في إصلاح أمره ، وشعرت نحوه باشمئزاز وزراية .

وشهدت « المعلم ياقوت » يوماً يكاد يتميز غيظاً من أفاعيل غلامه ، ويشكو من تمرده وتنمره ، فسألته :

لماذا لا يقصيه عنه ويستريح من شره ؟

فأجابني في لهجته الفطرية الساذجة :

كدت أقصيه ، لولا أن زوجتي استعطفتني عليه ، وذكرتني بأنه يعدم المأوى إذا أقصيته ، وأني عنه مسئول ، فهو بمثابة ولدي الكبير ، وله عليّ حق .

وحدق فىّ « المعلم ياقوت » وهو يكمل حديثه :

أصابت زوجتى فيما تقول . وما أطيب قلبها فيما تشير به ... لو كان هذا الغلام يستطيع الاستقلال بشأنه لتركته يعول نفسه . . . أتظن أنه على طوله وعرضه يحسن أن يقص شعر غلام ؟ وهل هو صالح لشىء ؟ إنى صابر عليه ، لعل الله يهديه . . .

وانتهى إلىّ من حديث الرجل أنه يقطن حىّ « السيدة زينب » غير بعيد من مقر عمله ، وأن له من زوجته ابنة تبلغ الخامسة تسمى « ست الكل » يشتد بها تعلقه . وكثيراً ما جلبها إلى الحانوت معه ، لكى تتسلى وتلعب على مرقبة منه . وقد شهدتها طفلة بسامة المحيا ، لطيفة الروح ، موفورة المرح ، لا تفتأ تداعب عروسها القطنية الملونة ذات الأهداب الغزار ... فإذا دنوت من الطفلة ملاطفاً أسائلها :

كيف حالك يا عروس ؟

واجهتنى بنظرة وديعة ، وهى تهمهم بالتحية والجواب . ثم تتشاغل بملاعبتها لعروسها القطنية فى حياء ، ولما حرصت على أن أوافيها فى الحين بعد الحين ببعض الحلوى ، أنست بى ، وركنت

إلىّ ، وجعلت تناقلني حديثها الوادع الرقيق .

وآسفني ذات يوم أن أرى « المعلم ياقوت » بادى الضعف ينتابه سعال مريب ، فأخذتني به رأفة ، وعرضت عليه أن أتفحصه ، وأن أبذل في سبيل صحته قصارى خبرتي الجديدة بالطب ، فتعذر علىّ وتأبىّ ، وقال في إيمان عميق :

يا سيدى . . . على الله الاتكال .

وتكاثرت الفترات التي يتخلف فيها الرجل عن عمله ، وهو ينتحل لذلك شتى المعاذير ، ولكن جسده كان يزداد على الأيام من هزال ، ووجهه تعروه دكنة واحتقان .

ومرة أقبلت عليه أصافحه ، فأحسست أنه محموم ، فقلت له من فورى :

أنت تهمل صحتك يا « معلم ياقوت » . . . ما كان أولاك بأن تلزم فراشك اليوم .

فكسر عينيه صامتاً ، سارح الفكر ، ثم ابتسم ابتسامة محسورة يقول :

من يطعم أسرتي إن طاوعتك فلزمت الفراش ؟ أفحسبت أن « عنقوداً » قادر أن يكسب لنا بضعة دراهم ؟ وهل في مستطاع

هذا المتسكع على طوله وعرضه أن يقص شعر غلام ؟ قلت لك الاتكال على الله يا « دكتور » !

على أنه اضطر أن يحتبس فى فراشه بعد أيام ، وعدته فى داره ، مصطحباً أحد الأطباء المتخرجين ، وزاولت معالجته ومعاونته بقدر المستطاع ، حتى خفّت عنه وطأة العلة ، وزايلته بعض أعراض الداء .

وأبطأتُ عنه حيناً ، ثم قصدت داره فى الضحوة ، فلما طرقت الباب طال انتظارى وأنا أسمع هرجاً يمازجه دبيب الخطا تغدو وتروح ، وأخيراً فتح الباب عن زوجة « المعلم ياقوت » شعثاء عليها اضطراب ، وقالت متلعثمة :

المعلم خرج .

وما لبثتْ أن أغلقت الباب ، فوجدتنى لحظات لا أريم مكانى ، وقد تملكنى فضول ، وإذا سمعى يتلقط همسات حبيسة تبينت فيها صوت الزوجة تتحدث إلى صوت ليس بالغريب علىّ . . . وسرعان ما انقطع الهمس ، فعجلت أنصرف ، متوخياً حانوت « المعلم ياقوت » فألفيت الرجل على بابه يلاطف طفلته ، وهى تهدهد عروسها القطنية ، فانبريت أسأله :

لماذا جشمت نفسك مشقة الخروج ؟ ألا تشفق على نفسك؟

ـــ أنا اليوم أحسن حالا والحمد لله .

فجسست يده أتعرف النبض والحرارة ، وقلت له :

حقاً تحسنت صحتك ، ولكن لا بد أن تحتاط ، وحذار من الإسراف على نفسك فى العمل . . . لماذا أراك مصراً على أن تترك صبيك « عنقوداً » وشأنه ؟ ألا تجعله يعينك فى عملك بعض العون ؟

فأجابنى ساخر اللهجة :

« عنقود » ! . . . وأين « عنقود » ؟ إنه يبدو حيناً ويختفى أحياناً . . . منذ ثلاثة أيام لم يقع نظرى عليه .

فعجبتُ أشد العجب من قوله ، وسمعى تعاوده تلك الهمسات التى تسربت إلىّ منذ قليل من خلف الباب ، حين كنت فى بيت « المعلم ياقوت » . وهممت أن أصارح الرجل بجلية الأمر ، ولكنى وجدتنى أطرق ، وأنا محنق أسيف .

ولبث الرجل يواصل التداوى من علته ، بإشرافى عليه ، حتى راجعه نشاطه ، وأشرقت على وجهه البشاشة والتطلق ، فأما « عنقود » فقد انتظم أمره فى خدمة معلمه خيراً مما كان من

قبل ، واستوثقت له إمرة وسلطان . بيد أنى ما كنت أراه حتى أعرض عنه ، يحدونى اشمئزاز منه ، ومقت له .

وأزف الصيف ، وحان أن أسافر لقضاء فترة العطلة ، فرأيت أن أعود « المعلم ياقوت » مودعاً ، وأطلت جلوسى إليه ، أرسم له خطة العلاج ، ومنهج التمريض ، لا آلوه نصحاً وإرشاداً.

وانصرفت عنه ، تتبعنى دعواته الصالحات يجأر بها إلى الله .

وعدت فى مستأنف العام الدراسى أواصل العمل ، وقد طال انقطاعى عن العاصمة ثلاثة أشهر . فلما بلغت بيتى ألقيت نظرة على حانوت « المعلم ياقوت » فإذا هو مغلق ، فسألت بعض الجيرة فى شأنه ، فأعلمونى أن الرجل طريح فراشه منذ أسبوع ، فأزمعت أن أزوره من غدى ، ولما أشرفت فى الصباح على داره ، وافقت « ست الكل » ابنة صديقى تفترش الطوار ، على سحنتها كآبة ، وبين يديها عروسها القطنية تعبث بها فى خمول ، فما إن ناديتها حتى هبت إلىّ تجرى. وما لبثت أن احتضنت ركبتى ، وقد أخذها الشهيق ، وانخرطت فى البكاء ، فانحنيت عليها أهدئ من روعها ، وأسائلها :

ما بلك يا بنية ؟ كيف حال أبيك ؟

فرفعت إلىّ عيناً خضلتها الدموع ، وقالت فى لهجة المتعجل :

أمى ماتت . . . أمى ماتت . . .

وعاودها البكاء .

ولم أملك أن أتكلم ، ورجف قلبي رأفة بتلك الصبية فى شعورها الحزين ، فأخذت بيدها أحاول التلطف بها والتسرية عنها ، حتى وقفنا عند حانوت حلوانى فى حارة قريبة ، فاشتريت لها ما يبهج له قلب الطفل الغرير ، وقلت للصبية :

هذا كله لك ولعروسك الحلوة . . .

فأشرق وجه البنية ، وصحبتنى حتى باب البيت ، ثم أخلت يدى من يدها عائدة إلى مكانها على الطوار تفتح لفائف الحلوى وتتذوق .

وصعدت بيت « المعلم ياقوت » أدق بابه ، ولبثت فترة أدق ، وأخيراً سمعت خفق خطوات زاحفة ، تصاحبها سعلة خشنة متمزقة ، وفتح الباب عن الرجل يحيينى ويرحب بى . . . ولما دخلت معه ، تقدمنى باذلا جهده فى حمل مقعد إلىّ ، وهو يميط بجلبابه الغبار عنه ، ويقول :

تفضل يا سيدى بالجلوس ، وانتظرنى قليلا أعد لك القهوة .

فأقسمت عليه أن يريح نفسه ، وأن يعفيني من قهوته ، فجلس على كرسى وطىء بجانبي ، وأنا أتفرس فيه ، وأتفحص خفيّة أمره ، فراعنى منه تغير جسيم : لقد جف عوده ، وتشابكت تجاعيده ، وبدا وجهه كاسفاً عليه زرقة .

وانبرى الرجل يحدثني بأخباره ، ما جل منها وما دق ، آخذاً بأطراف الأحاديث ، وأنا فى كل لحظة أتوقع أن يفضى إلىّ بما عرفته من طفلته على باب الدار ، ولكنه لم يفعل ، فلم أجد مفيضاً من أن أقول :

لقيت « ست الكل » بالباب تبكى . . .

فأظلت وجه الرجل سحابة دكناء ، وهمهم متثاقل الكلم :

نعم . . . على أمها تبكى . . .

فبادرته أقول :

البقية فى حياتك . . . عجباً . . . مبلغ علمى أنها لم تكن تشكو مرضاً . . .

فأجابنى جامد اللهجة ، وقد أشار بظهر يده إشارة زراية وإهمال :

لقد ماتت . . . وكفى !

وبدا عليه اهتياج مكبوت ، فنهض بغتة كأنه يبغى مخرجاً يتغلب به على أعصابه المستوفزة ، ولكنه ما عتم أن تهاوى على كرسيه ، فملت عليه أتبين أمره ، وأحاول إنعاشه ، فألفيته يغطى عينيه بيديه ، وقد هيمنت عليه نوبة النشيج .

فقلت له أواسيه :

الصبر يا معلم . . . إنك رجل . . . والدنيا لا تدوم لحىّ ، ولا يدوم فيها حىّ . . .

فكفكف الرجل عبراته ، وحملق فى وجهى متهدج الصوت يقول :

أترانى أبكى عليها ؟ أفحسبت أنها ماتت حقاً ؟ عليها اللعنة ولا ردها الله .

فأخذتنى البهتة وأنا أقول :

ماذا فى الأمر إذن ؟

ــ لقد كذبتُ على ابنتى ، أو قل إنى ضحكت منها ، فأفهمتها أن أمها ماتت ، وحقيقة الأمر أنها حية تسعى على ظهر الأرض . . .

فسألت الرجل مشدوهاً :

ولم ذلك يا معلم ؟

فنكس الرجل رأسه ، يعبث بحاشية ثوبه ، وقال مستكين الصوت ، ذليل النبرات :

لقد هربت . . . تخلت عن الرجل المريض الذى لم يعد صالحاً لها ... مع من كان هربها فيما تظن ؟... مع « عنقود »... ربيبي ، ذلك الخليع الفاسد الذى لم أستمع لنصحك حين رغبت إلىّ فى أن أطرده ، فأبقيت عليه حناناً ومرحمة !

ـ هكذا الناس أبناء خيانة وغدر . . . لا تأس على ما كان !

ـ لست بالآسى على نفسى ، وإنما أنا حزين من أجل ابنتى ، تلك التى أصبحتْ فاقدة أمها ، وعما قليل تفقد أباها أيضاً . . . فترى نفسها يتيمة الأبوين ، ولا تجد حولها من ذوى القربى من يبذل لها حنوا ورعاية . . . ما مصير هذه الصبية من بعدى ؟ إنى اليوم مريض ، وغدا راحل إلى غير عود .

فشددت على يده أقول :

بل ستحيا سعيداً مع ابنتك ، فلا تستسلم للوساوس ، ولا

يسرعن إليك القنوط ، واذكر الله . . . أنت بخير !

فهز رأسه متابعاً قوله ، وصوته بالنحيب مشوب :

لا تخدعني عن نفسي يا سيدي . . . فصحتي تتدهور ، ويومي وشيك . . . أنصت إليّ . . . أيقظني من نومي البارحة ظمأ ، فلم أشأ أن أزعج ابنتي من رقادها لتجلب لي الماء ، واستنجدت بقوتي ، وحاولت جهدي ، حتى استطعت أن أغادر فراشي ، وما كدت أتحامل على السير حتى تهاويت ، ودارت الأرض بي ، فقر في نفسي أني قد استوفيت من الدنيا نصيبي المقسوم .

وطأطأ الرجل ، كابي الوجه ، مهدم الكيان ، وإذا نحن نسمع جلبة بالباب ، ونرى « ستالكل » مقبلة تتواثب ، وفي يدها بقية من الحلوى .

وتدانت الصبية من أبيها تلقمه من حلوائها ، فضاء وجه الرجل ، والتفت ذراعه بخصرها في حنو واهتياج .

تتابعت بعد ذلك أيام شغلت فيها بشأني ، وحل يوم الجمعة ، فذكرت صاحبي ، وواعدت نفسي أن أزوره في الأصيل .

وبينما أنا جالس أترشف من قدح القهوة ، بعد أن أصبت

فطورى ، وأمامى رزمة الصحف أتناولها وأعبر ما فيها على تعجل – إذ بى أسمع نقرات خفافاً بالباب ، فقلت :

من ؟

فأجابنى صوت هين رفيق يقول :

أنا . . . أنا . . . افتح .

فنهضت إلى الباب ، فدخلت الصغيرة ساهمة واجمة ، تدعك أصابعها فى قلق ، وعيناها تائهتان ، فأمررت يدى على شعرها ألاطفها وأقول :

أهلا « ست الكل » . . . ما بك يا صبية ؟

فتشبثت بذراعى مهمهمة تقول :

أنا خائفة . . . أنا خائفة . . .

– مم تخافين ؟ وهل تخافين بالنهار ؟

فسمت بنظرها إلىّ متوسلة ، وجذبتنى مشيرة إلى الباب تقول :

تعال معى إلى المنزل . . . تعال معى . . .

– لماذا ؟ كيف حال أبيك ؟

– هو فى البيت نائم . . . تعال معى . . . أنا خائفة !

واشتدت فى اجتذابى إليها لأخرج معها ، فلم أجد مندوحة من مطاوعتها ، والأفكار فى رأسى تتضارب .

وفى أثناء الطريق استرسلت « ست الكل » تروى قصتها ...

قالت :

فى الليل وأنا فى نومى ، علا صوت لا أعرفه ، ففزعت وانكمشت . ولما سكن الصوت جعلت أنادى أبى من تحت غطائى ، فلم يستيقظ ، وما استطعت بعد ذلك أن أنام ، فتسللت مغمضة عينى إلى فراش أبى ، ونمت بجانبه متعلقة برقبته ، وما زلت نائمة حتى استيقظت فى الصباح ، ولكن أبى ظل مستغرقاً فى منامه ، فناديته ، ثم هززته ، ولكنه أبى أن يصحو ... فخفت ، فتركت البيت ، فجئتك . . . لتمضى إلى المنزل معى ، نوقظ أبى . . .

فذهب بى الظن فى شأن الرجل كل مذهب ، ومضيت مع الصبية ، حتى دخلت على أبيها فى حجرته ، فرأيته فى فراشه شديد الامتقاع ، فجعلت أتفحصه ، وما لبثت أن نظرت إلى « ست الكل » آخذاً بيدها إلى الباب ، قائلاً لها وقد أعطيتها بعض النقود :

اذهبي إلى بائع الحلوى ، فاشتري منه ما يروقك ، وانتظريني هناك ، حتى أوقظ أباك . . .

وتواثبت على الدرج هابطة .

وبعد وقت اتخذت فيه ما يقتضيه الموقف من إجراء ، قصدت الحارة القريبة أطلب « ست الكل » عند الحلواني ، فوجدتها في لمة من الأطفال تزهو عليهم بما تحمل من أنواع الحلوى ، وهي تمنح بعضاً من أترابها وتعرض عن بعض . فناديتها :

تعالى يا « ست الكل » . . .

فأقبلت عليّ ، فهششت لها ، وأمسكت بيدها أسير بها وأنا أقول :

أتحبينني يا « ست الكل » . . .

فاشرأبت تقول بملء فيها :

جداً يا أفندى جداً . . .

— كما أحبك ؟ . .

— أكثر يا أفندى .

— فلنذهب إذن إلى دارى ، ولتمكثي فيها معى . . .

— وأبى ؟

ـ سيرجع بعد قليل . . . لقد سافر . . .

فصاحت فى دهشة :

سافر ؟ هل استيقظ ؟

ـ استيقظ وسافر عل عجل ، لأمر مهم ، وإنه لعائد إليك محملا باللعب والحلوى .

ـ وهل يغيب ؟

ـ أياماً قلائل . . . ستمكثين معى . . . ألا تحبين ذلك ؟

فبدا عليها مظهر من التخاجل والاستحياء ، فبادرتها أقول :

اتفقنا . . . قبليني إذن !

وانحنيت إليها ، فأرسلت على خدى قبلة ساذجة ، وتركتني تسبقني بخطوات سراع ، فتبعتها بنظراتى ، وصدرى تجيش فيه أشتاتُ المشاعر ، وما لبثتُ أن أخرجت منديلي أمسح به دمعة طافرة !

الأمل المنشود . . .

شدّ ما حزن الفتى « سويلم » حين استأثرت المنية بأبيه الشيخ « نوار » . . .

لقد فقد فيه مثلا عالياً للأبوة ، وطرازاً رفيعاً من التقوى ، كما فقد فيه عائلا عظيما ، وكافلا كريماً . . .

كان أبوه يؤم الناس فى مسجد بلدة « الدهارشة » ، ظل فى منصب الإمامة زهاء ثلاثين سنة ، مشهوداً له بنقاء السريرة ، وصدق الورع ، وحب الخير للناس ، وأخلص له الأهلون ، حتى قبضه الله إليه ، وهو يحبو إلى الثمانين .

ولم يكن للشيخ « نوار » من الذرية إلا ولده « سويلم » فقد تخطف الموت سائر أبنائه من قبله ، وعاش له أخيراً ذلك الغلام الذى وهبه الله إياه على الكبر ، فكان لعينه قرة ، يبالغ فى التعهد له ، حتى ليخشى مرّ النسيم عليه .

ولكن القدر أبى إلا أن يداعب الرجل فى فلذة كبده مداعبة ثقلت وطأتها عليه ، فقد أصيب الغلام فى فجر صباه

بمرض عنيف ، ظل ينتابه حتى زلزل أركانه ، وهدّ كيانه . ولم يبارح جسمه إلا بعد أن أحاله حطاماً تزدريه الحياة ، فعاش « سويلم » كأنه هيكل بشرى ، لا إنسان سوىّ . . عينان غائرتان ، ووجه مأكول ، وقامة أشبه ما تكون بعود يابس يوشك أن ينقصف .

وبلغ الغلام الحلم ، فوجد الشيخ « نوار » نفسه يفكر فى مستقبل ولده ، على أى نحو يكون؟ وأية وجهة يسلك ؟ فلم ير إلا أن يعده « للأزهر » ، لكى يكون فيه شيخاً من رجاله الأعلام .

ولبث الأب يقرئ ابنه كتاب الله ، ويتولى تلقينه مبادئ العلم ، وبسائط الدين ، ويأخذه بتعاليم الشرع ، ويبث فى نفسه نزعة العقيدة وروح الإيمان ، وقد كان يغلو فى ذلك ويبالغ ، حتى صرف الغلام عن شئون دنياه ، فلم تعد له خبرة بوسائل العيش ، ولم تبق له طاقة بالكدح فى سبيل الكسب والاغتنام .

وكذلك شب « سويلم » لا يفقه من أمور الفلاحة شيئاً ، ولا يشارك أباه فى القيام على شئون الأفدنة الأربعة التى يمتلكها من أرض الله .

وأبت معقبات المرض أن تزايل جسم الفتى « سويلم » فتمكنت فيه ، تجدّد همه ، وتحرمه ما فى الحياة من لذة ومتاع . حتى إنها جعلته لا يحظى بما حظى به أنداده شباب القرية من زواج .

وكان الفتى يمضى أيامه ، لا شغل له إلا حديث الدين ، يبشر فيه الصالحين بما يوعدون من نعيم مقيم ، ويزهّد الناس فى هذه الدنيا الحافلة بالأوصاب والآلام ، ولا يجد للبشرية فى غير الدار الآخرة سعادة ونعمى .

وتقضت تلك الليالى التى جلس فيها الفتى « سويلم » يتقبل تعازى الناس فى أبيه ، فاعتكف أياماً فى حجرته ، دائب التفكير فى هذا الطارئ المفاجئ ، هذا الموت المحتوم . . . وتناوحت فى رأسه الأفكار والخواطر ، تمثل له ما يلقاه الراحلون عن هذه الحياة من ثواب وعقاب . فاطمأنت نفسه بأن أباه قد انتقل إلى بحبوحة من السعادة والأمن ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

واضطر الفتى أن يبارح داره ليعالج من شأنه ما يستوجب رعايته ، ولكنه كان يملأ وقته بالتحدث عن أبيه ، فما يكاد

يلقى إنساناً حتى يلتمس معه أوهن المناسبات ليتطرق منها إلى تعداد مناقب الشيخ « نوار » ، وما كان له من فضل على القرية عظيم .

على أن حاجات العيش كانت تقتضى الفتى « سويلم » أن يبذل لها بعض الجهد ، فإذا ألجأته إلى ذلك الضرورة ، لم يلبث أن يضيق بأول عقبة تعترضه ، فإذا هو يلوذ بالفرار إلى مصطبة الشيخ « مصيلحى » ، يقارضه الحديث فيما كان لأبيه من مكرمات ، وفيما آثره الله به من رحمة ورضوان .

وحان الموعد الذى يجبى فيه الملاك ما لهم عند المستأجرين ، فلم يصب الفتى « سويلم » من إيجار أفدنته الأربعة إلا دنانير معدودات ، أنفق معظمها فى إقامة حلقات الذكر ، ترحماً على فقيد القرية الشيخ « نوار » .

وعلى مر الأيام مست حاجة الفتى إلى المال ، فأقبل على مستأجرى أرضه يتقاضاهم ما بقى فى ذمتهم له ، فجعلوا يعدونه ويمطلونه ، ولا يملون إخلاف مواعيدهم معه ، وما زالوا يراوغونه ويداورونه حتى خرج باليأس من المطالبة ، واستيقن أن الناس مطبوعون على ضرائب شر وأذية ، وأنهم كذبة

منافقون ، لا شرف لهم ولا دين ، فأحسّ خيبة الأمل تعمر ما بين جنبيه ، وبدت له الدنيا ظلمات بعضها فوق بعض ، وشاهت وجوه الناس فى عينه ، فلم يعد يأنس بهم أو يبش لهم ، إلا صديقه الفقيه الورع الشيخ « مصيلحى » ، فكان دائم التردد على مصطبته ، ينعيان معاً على هذه الدنيا ما حوت من مساوئ وآثام .

ومرة وهما يتناقلان حديثهما المألوف ، فى موضوعهما المعاد ، عرض الشيخ « مصيلحى » لحادثة وقعت فى القرية منذ عهد بعيد ، وكان فيها للشيخ « نوار » كرامة لا تنساها القرية وإن تواترت السنون ، فأنصت الفتى لهذا الحديث ، مأخوذ النفس ، مسحور السمع ، حالم النظرات ، وإذا هو يغمغم قائلا :

ترى أين أنت الآن يا أبتاه ؟

فحدق فيه الشيخ « مصيلحى » وهو يخلل لحيته بأصابعه ، ثم قال له :

فى الجنة يا بنى ، مع المتقين الأبرار !

فبدا الفتى فى شغف يقول بصوت خافت حنون :

الجنة ؟ . . . الجنة ؟ . . . ناشدتك الله أن تزيدنى بها علما .

فتنحنح الشيخ غير مرة ، وانطلق شائق الأسلوب ، يفضى بما عنده من وصف الجنة ، وما فيها من هناءة ومتاع ... ولبث يطنب فى بيان ما تحتويه مما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين ، فيستمع الفتى لذلك فاغراً فاه ، تبرق عيناه ، وإذا هو ينفث من صدره تنهدة جياشة ، ولسانه يقول :

من لى بالجنة ؟ من لى بها ؟

فتبسم الشيخ يجيبه :

إنها لك بعد عمر طويل . . . أنت الطيّب ابن الطيّب !

فنكس الفتى رأسه ، وهو يقول :

أتطلب لى طول العمر فى هذه الحياة المشوبة بالشقوة والبأساء ؟ ماذا فى الدنيا من خير يرجى ، أو متعة تنال ؟

واستبد بالفتى هذا التفكير ، فكان إذا أوى إلى فراشه وملكته عينه ، تمثل له أبوه فى حلم بهيج ، متربعاً على أريكة من ذهب ، بسطت عليها الحشايا الوثيرة ، ومن حوله ما لذ وطاب من مناعم العيش ، وعلى وجهه يتلألأ نور . . .

فلا يكاد يلمح ابنه ، حتى يبتسم له ، وكأنه يومئ إليه يدعوه !

واشتد زهد الفتى فى الحياة من حوله ، فهو لا يطعم إلا ما نزر ، ولا يشرك الناس إلا فيما ينوبهم من المآسى والأرزاء . فما كانت تفوته جنازة ، ولا كان يعوقه شيء عن حضور مأتم ، وأطيب أوقاته ما يمضيه على ربوة القبور !

وكان أحياناً يجد نفسه ضائقاً بمحبسه فى البيت ، فينطلق إلى الطريق ، فرداً يستروح ، وإذا به تسبوقه الخطا إلى شريط القطار ، فلا يفتأ يغدو ويروح ، وقد وطن عزمه على أمر مقرر محتوم ، يظفر منه براحة الأبد . . . ويظل الفتى على حاله ، سابح النظرات فى عباب الأفق ، حتى تصك سمعه جلجلة القطار العتى فى هجمته الخاطفة ، فيحس الأرض تحت قدميه قد زلزلت زلزالها ، وإذا هو مزعَج قد استيقظ من غفوته ، وإذا هو يقفز من مكانه بعيداً عن شريط القطار ، كأنما قذفت به يد قاهرة !

وفى الحين بعد الحين ، كان يتخذ مجلسه على حافة تلك الساقية المهجورة فى أقصى القرية ، فيدلى ببصره فى

مهواها المظلم السحيق ، يتبين فى قاعها سفينة نجاته من عالم الشرور ودنيا الأوزار . ولا يكاد يميل على شفا البئر ، مسلما جسمانه ، حتى يستشعر الرعشة تصدم أوصاله ، فلا يلبث أن يرتد ، وقد أخذه الفزع من كل جانب ، فيتخذ سبيله إلى بيته كئيباً يثور على نفسه الخوارة وعزمه المهزوم !

وتثاقلت هموم الفتى على كتفه ، فإذا نظر إلى داره التى درج فيها وترعرع ، لم يجدها إلا سجناً تصفر فيه وحشة وانقباض ، وإذا مد عينيه إلى الطريق من حوله تراءت له الدنيا كأنما تنفث فى وجهه دخاناً تختنق منه الأنفاس . فأما مجلسه عند الشيخ « مصيلحى » فلم يعد يطيب له ، بل إنه أصبح يتبرم بالمسجد حين يحتشد بقصاده من طلاب الصلاة .

وتضاءل نصيب الفتى من دنيا الناس ، حتى إنه قصر خطاه على الطريق بين بيته وبين مقبرة أبيه ، فهو يقضى بجانب الرمس أطول وقته تائهاً فى بيداء خياله ، يحاول أن يقاسم روح أبيه ما تنعم به فى دار الخلود .

وذات يوم والوقت أصيل ، تسلل الفتى « سويلم » من

داره ، مشتملا بعباءته البالية ، لا تبدو منه إلا عينان تبصان فى حيرة واضطراب ، وظل الفتى يسير حتى فارق البلدة ، فواصل سيره يسأل ويستخبر ، وقد أقبل عليه الليل وتغشاه ، وهو ما برح ماضياً فى الطريق . . .

وتوخى الفتى وجهة المستنقع الكبير ، حتى أسلمته خطاه إلى خرائب ودمن ، فاخترمها ينشد ضالته ، إلى أن تراءت له شعاعة تخبو وتلوح ، فاستهدى بها حتى أبلغته إلى بيت متهدم ، فمثل أمام بابه يحدق فيه .

ولما استيقن أنه لم يضل سبيله ، وقف متردداً لحظات ، ولكنه أذكى من عزيمته واستجمع ، فدفع الباب يحث خطاه فى ممشى ضيق ، ثم ألفى نفسه بغتة فى قاعة ترق فيها الظلمة ، ولا يفصح فيها الضوء الشحيح إلا عن أشباح غامضة فى شبه حاقة ، فلم يلبث الفتى أن زكمته ريح غير مألوفة اختنقت منها أنفاسه ، فمكث هنيهة يحاول أن يميز هذه الأشباح ، وأحس بجسمه تعروه قشعريرة ، فعجب من نفسه كيف سولت له قدمه أن يطأ هذه البقعة المريبة ، وهم بأن يعود أدراجه ، هارباً من ذلك الوكر المرهوب ، ولكن صوتاً أجش النبرات ، علا يسأله :

من أنت ؟

وإذا بالفتى يرى وميض العيون يترامى عليه كأنه سهام تضرب حوله الحصار .

ورقيت إلى سمعه همهمة استياء ، زادته من خشية ورهب . . .

واستأنف الصائح يقول :

من أنت ؟

فألقى الفتى « سويلم » نفسه يتدانى ، وهو يجيب فى صوت متهدج :

أريد أن ألقى « عم خفاجة » .

فنهض إليه صاحب الصوت ، أعجف الوجه ، عليه جهامة وقطوب ، وجعل يتفرس فيه بعينين غائرتين تحت أهداب غزار ، وما هى إلا أن قال له :

فيم سؤالك عن « خفاجة » ؟

— أريد التحدث معه فى شأن خاص . . . فى مهمة خطيرة !

وأمسك الرجل بيد الفتى ، وقاده إلى حجرة داخلة ،

فيها شمعة موقدة تثير في الأرجاء ظلالا كأنها رءوس الشياطين . . . وهنالك في ركن من هذه الحجرة يتراءى شبحان يتساران في اهتمام ، مالبثا أى أن رفعا أعينهما يستوضحان من الطارئ . فدفع الرجل بالفتى نحوهما ، وهو يقول :

ضيف يطلب « عم خفاجة » في شأن خاص . . . في مهمة خطيرة !

وما أسرع أن خلت الحجرة ، إلا من الفتى « سويلم » وهو جالس قبالة رجل ضئيل الجسم ، صلب العود ، له عينان تتقدان كعيني النمر ، يقول :

أنا « خفاجة » . . . ماذا أتى بك يا شيخ « سويلم » ؟

فارتجف الفتى يغمغم :

وهل عرفتني ؟

فأجابه الرجل في صوت لين عطوف :

ومن ذا الذى لا يعرف الشيخ « سويلم » ؟ ومن ذا الذى لا يعرف ابن الشيخ « نوار » ؟ من دلك على مكانى ؟

فاطمأن الفتى شيئاً ، ولكن بصره جعل يزيغ في الحجرة ، ويتيه .

ثم ابتدأ يقول :

لقد كنت أبحث فى الخفاء عن شخص أركن إليه ، فى مهمة عظيمة ، فدللت عليك . . . ويعلم الله ما لقيت من عناء فى سبيل الوصول إليك .

ــ أهلا بك . . . أخبرنى عن مهمتك .

فصمت الفتى برهة يهم بالكلام ولا يبين ، ونظراته تضطرب يمنة ويسرة ، فقال له « خفاجة » وهو يربت كتفه :

تكلم . . . اطمئن إلىّ . . . ما مهمتك ؟

فاندفع الفتى يقول فى عزم وحزم :

المهمة هى تخليص روح من جسد . . . ألا أستطيع أن أعول عليك ؟

فقال « خفاجة » مدهوشاً :

أتريد إزهاق روح أحد ؟

فصاح الفتى من أعماق نفسه يقول :

بل أريد تخليصها من عالم البؤس والشقاء !

ــ لم أفهم مرادك . . . أوضح !

ـ مسألتى واضحة . . . عشرون جنيهاً لك جزاء على تخليصك هذه الروح . . . عشرة مقدمة ، ومثلها تنالها ساعة انقضاء المهمة . . . عشرون جنيها . . . هى كل ما بقى لى ، هى كل ما أملك !

ـ عوّل علىّ . . .

ـ إنى مشترط عليك شرطاً .

ـ أى شرط هذا ؟

ـ أن تكون الضربة فى مقتل ، حتى يخر المضروب صريعاً من ساعته !

ـ سيقضى فى طرفة عين . . .

ـ عوفيت يا عم « خفاجة » ، هاك الجنيهات العشرة !

وقدّم الفتى إلى الرجل رزمة من أوراق النقد ، فأخذها الرجل فى غير مبالاة ، وقذف بها فى جيبه ، وسكت « سويلم » قليلا ، وقد اكتسب وجهه سيماء الطمأنينة والاستقرار ، وكأن عبئاً قد انزاح عن كتفيه ، ثم أخذ يهمهم :

سوف يكون غريمك فى بلدة « الدهارشة » مساء غد ، وسيمضى بعض وقته فى بيتى ، ثم يخرج بعد صلاة العشاء

بساعة كاملة ، متخذاً طريق الجرن القديم ، ثم يحيد إلى حقل النخيل . . . ناحية مهجورة أراها تصلح لإنجاز مهمتك على خير وجه . . .

ـ لا تحمل للأمر همًّا !

ـ ستكون مع الرجل الجنيهات العشرة المؤخرة . . . هى حقك الباقى . . .

فقال « خفاجة » مبتسما فى مداعبة :

هل لك أن تصارحنى بجليّة الأمر ؟

ـ هذا سرّى لا أبوح به .

ـ شأنك وما تريد .

ـ سترى غريمك وحيداً بلا رفيق ، ملثما بعباءته السوداء ، راجلا يحث خطاه .

ـ ما اسمه ؟

ـ ستعرفه فيما بعد .

فصمت « خفاجة » حيناً ، ثم أقبل على محدثه متقد العنيين ، قائلا :

أما إن كانت هناك مكيدة تريد أن تحوكها لى . . .

فقاطعه الفتى يقول فى عزم وتأكيد :

حاشاى أن أفعل !

– لئن وقع بى ضرّ لتكونن فريستى ... لا تنجو ببدنك منى !

وفى الموعد المضروب ، وقد أظلت البلدة ظلمة العشية ، خرج من بيت الشيخ «سويلم» شخص وحده ، تلفه عباءته ، فتخفى وجهه ، وهو ماض فى طريق الجرن القديم إلى حقل النخيل . . .

وما إن قارب الحقل ، حتى هم بأن يحث خطاه ، فإذا هو قد اضطربت مشيته ، واختل اتزانه، ولكنه ما لبث أن اعتدل مندفعاً يوسع الخطا ، فلما توسط الحقل برز من خلفه «خفاجة» شاهراً فى يده هراوته الصلبة ، فأهوى بها على رأسه، فسقط من فوره يترنح ، وهو يغمغم :

إلى جنة الرضوان !

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس

تصدرها

دار المعـــارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد